عزيز نيسين

تِرِي.. لِي.. لَمْ



ترجمة: عبد القادر عبد اللي

INTERNATIONELLA BIBLIOTEKET

يَدِ لَيْ لَمْ

عزيز نيسين

تري.. لي.. لم

ترجمة: عبد القادر عبد اللي

المدى

منشورات

٤٥

اسم المؤلف :عزيز نيسين
عنوان الكتاب :تريْ . . لَيْ . . لَمْ
المترجم :عبد القادر عبداللي
الناشر :دار المدى للثقافة والنشر
الطبعة الأولى :١٩٩٨
الحقوق محفوظة

Author : Aziz Nessin
Title : Teri.. Lai.. Lam

Al Mada : Publishing Company
First Edition 1998
Copyright © Al mada

دار المدى للثقافة والنشر
سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٧٧٧٢٠١٩ - ٧٧٧٦٨٦٤ - فاكس : ٧٧٧٣٩٩٢
بيروت - لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ - ١١ فاكس : ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

Al Mada : Publishing Company F.K.A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 . Tel: 7776864 , Fax: 7773992
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon, Fax : 9611- 426252

الشخص المنتظر

الاسم يشبه الاسم ، والمكان يشبه المكان ، والإنسان يشبه الإنسان ، والرجل كأنه الرجل ، والمرأة كأنها المرأة . . إن ما نحكيه حكاية . . فإذا زل لساننا وذكرنا اسمكم فنرجو عفوكم .

كان ياما كان في أحد الأيام ، كان رجل في مدينة بخارى . قلب هذا الرجل أطهر من الماء ، عيناه على الأرض وجبينه في السماء ، ولا يتوانى لحظة عن ذكر اسم الوضّاء . لا يقدم على سوء ، ولا يخطو خطوة دون وضوء . لا يعير انتباهاً لهراء ، ولا يقطع وقت صلاة .

بلغ الأربعين ، طوال حياته ما حفر أمام إنسان ، ومافك دكته لحرام ، وما كتب حرفاً دون معنى في كلام . كان ملاكاً لا ينقصه إلا جناحان . يتهادى في مشيته كأنه يطير . لا يضايق أحداً ، ولو داس على نملة لما أوجعها . هكذا كان الرجل .

اعتكف على الدعاء لله ، والرجاء من المرتجى ، حتى إنه دماً قد بكى ، وكان يقول : «اللهم اجعلني أسمو في طريق الحق» . وفي نهاية ليلة اليوم الثالث للدعاء ، وفي الصباح الباكر تناهى إلى سمعه صوت .

ـ أيها العبد الصالح! . . .

رد على الصوت

ـ سمعاً وطاعة .

ـ في مكان ما من هذه الأرض يوجد شيخ اسمه شزالت . ابحث عنه حتى تجده . هب نفسك له ، وكن عبده .

رد على الصوت القادم من ظلمة الفجر الشديدة .

ـ أمرك على الرأس والعين!

من هذا المنزول إلى ذاك الموقف ذهب وجاب . قطع الجبال والوديان والوهاد . وسار على مدى صيفين وشتاء . في النهاية وصل إلى مدينة تدعى بغداد . بحث وما ترك أحداً دون أن يسأله ، وما ترك باباً لم يطرقه . لكنه لم يجد الشيخ شزالت . عندما كان يسأل أحدهم عنه ، كان ذاك يجيبه :

ـ الشيوخ كثيرون ، ولكن لا يوجد من يدعى شزالت .

مشى أربعين يوماً ، وفي اليوم الحادي والأربعين وصل إلى مدينة تدعى شام . لم يجد من يبحث عنه في الشام . وصل إلى بصرى وهنا ما وجده . ومن هنا إلى دولة الروم ، ومنها إلى دولة العجم ، وما وجد الشيخ شزالت في أي مكان وصل إليه . غدا الرجل عجوزاً . شعره منسدل على كتفيه ، ولحيته إلى زناره . عاد إلى مدينة بخارى . مرت عليه أيام لم يذق فيها زاداً ، ولم يغمض له جفن . لم تعد ركبتاه تستطيعان حمله ، فانهار على جانب نهر . نظر الى المجرى وهمّ قائلاً لنفسه :

ـ لأجدد وضوئي ، وأقيم صلاتي .

وبينما كان يتوضأ على حافة النهر ، رأى خيارة تنساب إليه مع تيار الماء . لم يستطع المقاومة . التقط الخيارة ليسد جوعه . خيارة كبيرة جعلها لقمتين . مضغها وبلعها . قال لنفسه : أكلت خيارة لا أعرف صاحبها . هذه ثمرة محرمة لأنني لا أعرف مالكها . سأبحث عن حقلها . وبعد أن أجده ، سأعرف صاحبه ، وأستسمحه عن الخيارة التي أكلتها .

نهض وسار في عكس اتجاه التيار ، فوجد حقل الخيار . سأل عن صاحبه فقالوا له :

ـ يسكن في هذه الدار .

قرع الباب . تنبعث من الداخل أصوات قوية لشتائم وسباب . الأصوات قوية تهز الجبال والصخر . كان فاتح الباب رجلاً تبدو عليه علائم الشر . في خصره حزام ، وفي الحزام غدار . انتصب أمامه وقال :

ـ ماذا تريد يا حمار ؟

فقال :

ـ أريد صاحب حقل الخيار . .

دخل الرجل فوجد أربعين غرفة في الدار . في كل غرفة أربعون من اللصوص والمناحيس والأشرار . جلسوا يلعبون النرد ، والورق والقمار . كان صاحب الحقل متربعاً على طنفسة ، ويجمع من الرابحين حصة . قال له صاحب الحقل مزمجراً :

ـ ماذا تريد ولاه ؟

رد عليه قائلا :

ـ يا سيدي ، من هذه النواحي كنت ماراً . كنت جائعاً ، وتعباً ونعساً ، قلت لنفسي أجدد وضوئي على حافة النهر وأصلي . فرأيت على سطح الماء خيارة تتجه نحوي . لشدة جوعي اسودت عيناي وطار صوابي . فلم أستطع صبراً فأكلتها ، ثم عرفت أن ما فعلت كان حراماً ، فسألت عن صاحبها . علمت أنها من حقلكم . والآن أتيتكم . ومن أجل الخيارة التي أكلتها أرجو سمحكم .

قال له الرجل الجالس على الطنفسة :

ـ هذا الحقل ليس لي وحدي . نحن ثلاثة أخوة . رجلان وامرأة . أخي الأصغر يسكن في مدينة تدعى بلخ ، أما أختي فهي في مدينة تدعى مروة . الخيارة التي أكلتها ليس لي فيها إلا الثلث . ثلثاها لأخوي . فلو سامحتك لما كان سماحي إلا لثلثها . ثلثاها لهما .

قال له وهو منتصب أمامه باستعداد :

ـ إذا كان الأمر على هذا النحو ، فسامحوني بثلثها . وسأذهب إلى

أخويك واستسمحهما بثلثيها الباقيين .

ـ بيتي هذا مقمرة . أديرها بسرية عن الدولة . لهذا السبب فأنا أسكن في بيت بعيد عن مدينة بخارى . إذا خدمت في مقمرتي هذه عشر سنوات سأسامحك بثلث الخيارة التي أكلت . وإلا فلن أسامحك .

قال له بعد أن ارتمى على قدميه :

ـ أرجوك! . .

رفس صاحب المقمرة الرجل المرتمي على قدميه متوسلاً . فكسر له عظمه وأدمى أنفه . وعندما لم يجد مخرجاً ، عمل في المقمرة عشر سنوات ، لكي يحلل الخيارة التي أكلها حراماً . عمل عند الأبواب حارساً ، ولنسبة الربح جابياً ، وللأرض كانساًوماسحاً . وتعلم كل الحيل المتعلقة بما يدعونه قماراً . غدا لا يوجد في بخارى مقامر أفضل منه . عرف كيف يمسك النرد ، ويطبق أوراق اللعب . يرمي النرد دائماً دوشيشاً ، وفي كل فتحة ورق يسحب الورقة الأعلى . وبدون طول سيرة ، أصبح مقامراً ما عرف التاريخ مثله .

وبانتهاء السنوات العشر قصد صاحب المقمرة متوسلاً . فقال له :

ـ سامحتك بثلث الخيارةالتي أكلتها . والآن اذهب إلى أخوي واستسمحهما! . .

أخذ العنوان ، وخرج إلى الطريق بعد أن قبل اليد والثوب . ولأنه اعتاد على القمار فما عاد يستطيع الاستغناء عنه فأينما حل كان يلعب ، وأهل المكان يسلب . ويأخذ النقد والمال من أي شخص معه يلعب . وإذا وقع في طريقه على بيت في قرية ، حول البيت إلى مقمرة .

من هذا المنزول إلى ذاك الموقف ذهب وجاب . قطع الجبال والوديان والوهاد . وسار على مدى صيفين وشتاء . وفي النهاية وصل إلى مدينة بلخ . وسأل وفتش . ووجد البيت الذي كان عنه يبحث . كان بيتاً ضخماً خارج المدينة . قرع الباب . كان ينبعث من البيت أصوات عزف وقهقهة وغناء .

كانت تلك الأصوات تهز الأرض والسماء . فتح الباب . كان الفاتح ثملاً ، لا يقوى على الوقوف على قدميه .

وفور فتحه الباب صرخ :

ـ هيـ . . . . .ـه! . . ماذا تريد يا حمار ؟

قال له ما أراد . ثم دخل فوجد في البيت أربعين غرفة . وبرميل خمر في كل منها لا يقف لحظة . والخمور كالسيل جارية في هذه الجهة يتسطح شاربو الحشيش والأفيون ، وفي تلك تموج الراقصات والعازفون . مر بين أشخاص ، طاسة خمر دفعة واحدة يشربون . ثم مثل في حضرة الشخص الذي سأل عنه . وبعد أن قبل الثوب واليد منه ، شرح له ما صار معه .

ـ يا سيدي سامحني أخوكم الأكبر بثلث الخيارة التي أكلتها . سامحوني بالباقي أنتم .

رد عليه :

ـ نحن ثلاثة أخوة . والحقل لنا جميعاً . ولنا أخت صغيرة تسكن مدينة مروة . فسماحي لن يكون إلا بثلث الخيارة .

ـ أرجوكم سامحوني ، ولو بثلثها .

ـ بيتي هذا خمارة . أديرها من غير علم الدولة . لهذا السبب فإن البيت خارج مدينة بلخ . إذا خدمت في خمارتي عشر سنوات سأسامحك بثلث خيارتي . وإلا فلن أسامحك .

ارتمى الرجل على قدميه ، وقال :

ـ أرجوك

لكنه رفسه برجله ورماه . ومن أنفه وفمه دمّاه

وعندما لم يجد مخرجاً خدم في الخمارة عشرة أعوام لكي يحلل الخيارة التي أكلها من الحرام . خلال هذه المدة قرّع بعصاته الثملين ، وطرد المشاغبين . فتح الموائد للسكارى ، وجمع البقايا . نظف بيوت الخلاء . أصبح سكيراً لا يوجد في العالم له مثيلاً . صار يشرب في وقفة زجاجة ،

وفي جلسة برميلاً . بلع براحة اليد أفيوناً ، وبالمشرب دخن حشيشاً . وبدون طول سيرة أصبح سكيراً لم ولن تشهد له الحياة مثيلاً .

عندما انتهت الأعوام العشرة ، ذهب إلى صاحب الخمارة وقبل أثوابه :

ـ سامحتك بثلث خيارتي ، والآن اذهب إلى أختي ، واطلب منها السماح بالثلث الباقي! . .

أخذ العنوان وذهب ، ولأنه اعتاد على الخمر والقمار فما عاد يستطيع صبراً دونهما . ولو صادف في طريقه قرية مؤلفة من بيتين فيحول الأول إلى مقمرة ، والثاني إلى خمارة .

من هذا المنزول إلى ذاك الموقف ذهب وجاب ، قطع الجبال والوديان والوهاد . وسار على مدى صيفين وشتاء . وفي النهاية وصل إلى المدينة التي تدعى مروة . سأل وفتش ، ووجد البيت الذي عنه بحث . كان بيتاً ضخماً خارج المدينة . تحيط به من أربع الجهات أشجار وكرمة . منها أشجار بغير ثمر ومنها مثمرة يجري أمام البيت نهر ماؤه كالفضة . على حافتي النهر ورود من جميع الألوان مصطفة . أمام البيت بركة . البركة من مرمر فيه نقش ذو صنعة . تسبح في البركة فتيات عاريات كما ولدن ، كالثلج بيضٌ بشراتهن ، لوزية تقدح شرراً عيونهن ، مثل الأقمار وجوههن . كالسيوف حواجبهن ، توجت بالذهب رؤوسهن ، أجمل الابتسامات على شفاههن ، نحيلات خصورهن . عندما يقفن كأنهن يطرن ، وكالملائكة عندما يتلاعبن .

كانت تتعالى من داخل البيت أصوات كلمات وضحكات ، وتأوهات ، تجعل الجبال والسهول تئن لهذه الأصوات . فتحت الباب امرأة عارية تماماً ، فضة جسدها ، وخيزران خصرها ، وتوت لسانها ، قالت :

ـ تفضل يا روحي ، تفضل يا عيني . .

دخل . كان في الداخل أربعون غرفة . تملأ الغرف نساء عاريات ، ورجال يحتضنونهن . ومن جهة أخرى تعزف الأعواد ، وتدق الدفوف ، وترن الأجراس ، وتشدو النايات .

صاحبة البيت عجوز شمطاء ، شعرها كالمكنسة ، رأسها كالطبل ، أسنانها كالفأس ، بطنها منفوخة ، عيناها غائرتان ، أذناها مغرفتان . أنفها كالمحشي ، ظهرها محني . أسنانها متساقطة . عمرها سبعون سنة . سألته :

ـ ماذا تريد ولاه قواد ؟

حكى لها ما جرى . وقال لها إنه جاء طالباً المسامحة بثلث الخيارة الباقي . قالت له :

ـ بيتي هذا بيت دعارة . أديره بشكل خفي عن الدولة . نحن ثلاثة أخوة ، والثلاثة مشاهير ، أخي الكبير يدير مقمرة ، والأصغر يدير خمارة ، وأنا أدير بيت دعارة . لهذا فأنا أعمل قوادة في بيت بعيد عن مدينة مروة . إذا عملت عندي في بيت الدعارة هذا مدة عشر سنوات سأسامحك بثلث الخيارة ، وإلا فلن أسامحك .

وعندما لم يجد مخرجاً ، خدم في بيت الدعارة عشرة أعوام . وفي هذه الفترة استقبل الزبائن وباع نساء واشترى . وبدون طول سيرة ، أصبح في هذا العمل خبيراً . ما عرف التاريخ مثله قواداً .

عندما انتهت السنوات العشر ، قبل ثوب المرأة القوادة واستأذنها . فقالت له :

ـ سامحتك بثلث الخيارة التي أكلت . هيا اذهب سهل الله لك الطريق . . ليجعل الله التراب بين يديك ذهباً .

ومن هذا المنزول إلى ذاك الموقف ذهب وجاب ، قطع الجبال والوديان والوهاد . وسار على مدى صيفين وشتاء . ثم دخل دولة الروم في صباح أحد الأيام . وهناك رأى مدينة لا يعرف اسمها . كان ينبعث من المدينة صوت الطبل والزمر . قال لنفسه ، لا بد أنه العيد . دخل من باب المدينة . وماذا رأى فيها ؟ رآها من كل جانب مزينة . أعلام وفوانيس . طبول تقرع ، وزمور تصدح . كان يسير وأمامه خمسة عازفين . وعلى بعد كل مائة خطوة تذبح الكباش ، والعجول والجمال والأغنام قرابين . آلاف الأشخاص على جانبي

الطريق احتشدوا ، والجميع بكل قوتهم صرخوا :

ـ عاش الشيخ شزالت! . .

ثم صفقوا وتقافزوا .

نصبت الأقواس في كل الطرقات . كل مائتي متر يوجد قوس ، كتب عليه : «أهلاً بالشيخ شزالت» .

دهش الرجل . توجه نحوه أشخاص يلبسون بزات السموكن ، والمعاطف الرسمية وعلى رؤوسهم قبعات اسطوانية . وصلوا إليه ، وانكبوا على قدميه ، وقبلو ثوبه ويديه .

قال الرجل وهو مندهش :

ـ ما هذا ؟ من هوالشيخ شزالت ؟ إنني أبحث عنه منذ سنوات . .

قال مقبلو اليدين والثوب والقدمين :

ـ رحماكم . نحن الذين نبحث عن الشيخ شزالت منذ سنوات طويلة . أنتم الشيخ شزالت . تعالوا لتكونوا على رأسنا .

رد الرجل :

ـ رحماكم ، قفوا ، لا تفعلوا شيئاً ، لا بد وأن في هذا الأمر خطأ .

ـ لا ليس في هذا الأمر خطأ ، شهرتكم ملأت الأصقاع ، ولا علم لكم بهذا .

ـ توقفوا! أنا مصاب بِعِلّة .

ـ كلنا مصابون بعلّتك . ولكن لا أحد منا علته بحجم التي لك . لهذا السبب قررنا توليتك .

ـ لكنني مقامر .

ـ أوخ ، أوخ . . حسن ، حسن ، حسن جداً . . كلنا مقامرون . ولكن لم يرتق أحد منا لسموك ، لهذا ستكون ملكنا .

ـ حسن ، ولكنني سكير! .

ـ رحماك ، حسن جداً . نحن جميعاً نشرب . ولكن لا أحد منا يشرب

مثلك . لهذا نطلب منك أن تكون على رأسنا .

ـ حسن ، ولكنني . . . .!

ـ أحسن يا سلطاننا . نحن جميعاً هكذا . وهل من حدّنا الوصول إلى منزلتكم! ولهذا السبب تاجاً على رؤوسنا نعتبركم ، وليس بيننا من يفوقكم ، ومنذ سنوات طويلة ونحن ننتظركم .

تفضلوا بالجلوس على عرشكم . .

فهم الرجل أنه أمضى ثلاثين عاماً ، كل عشرة في مكان لكي يصل إلى علو شزالت . وأن الشخص الذي كان يبحث عنه هو ذاته . وقد انتظروه سنوات طويلة لكي يتوجوه وسط فرق الموسيقى والمحيين . ودخل القصر ، وجلس على العرش .

القديس موكتوس، والعاهرة كامينا

لو طار موكتوس في أحد الأيام لما أَدهش أحداً . وسبب عدم ارتقائه إلى السماوات حتى الآن ، لا بد أنه شد الغافلين ، الصابئين عن طريق الرب إلى الطريق القويم .

وفي يوم من الأيام ، سألته إحدى النساء القادمات إلى الكنيسة :

ـ يا أبانا المحترم . ثمة قضية . منذ زمن طويل ويشغل بالنا سؤال . هل أنتم تأكلون مثلنا نحن الفانين .

فهم موكتوس بسرعة ما رمت إليه المرأة الكاملة الدين . فلم يرد قول الحقيقة كاملة لكي لا يهدم خيال المرأة ، ولأنه لا يريد أن يكذب ، وبالتالي يعارض أمر الرب ، فاختار جواباً ما بين بين :

ـ أيتها الأخت ، أنا أُعَدُّ آكلاً ، وليس بآكل . ما آكله يومياً ثلاث حبات زيتون تمنحني قوة الدعاء إلى الله ، وما أشربه طاسة من النبيذ . .

اندهشت المرأة الكاملة الدين من هذه الكلمات . لأن كل سكان البلدة يظنون أن موكتوس يعيش كالملائكة دون طعام أو شراب . سألته المرأة :

ـ يا أبانا المحترم ، أستميحكم عُذراً ، هل تتثاءبون مثلنا نحن الفانين ؟

ـ لا أيتها الأخت ، لا أتثاءَب .

ـ ولا تعطسون ، أليس كذلك ؟

ـ لا أعطس .

ـ هل تتجشؤون ؟

ـ لا أيتها الأخت ، لا أتجشأ .

قالت المرأة السعيدة لتلقيها هذه الإجابات ، وهي ترتجف :

ـ يا أبانا المحترم ، أريد أن أعرف شيئاً آخر . كل نساء القرية تتوق لمعرفته . يا ترى . .

ـ احكي يا أخت .

ـ أخجل يا أبانا المحترم . .

ـ يمكنك أن تسألي عن كل ما يخطر ببالك .

ـ هذا . . يا أبانا المحترم ، وهل أنتم أيضاً . . كما نحن معشر الفانين . . كيف أقول هذا ؟ . . هل تخرجون ؟ . . أي هل تذهبون إلى الحمام ؟

قطب موكتوس حاجبيه وقال :

ـ مستحيل . . أبداً . .

قبلت المرأة يد موكتوس . . ثم دخلت إلى بهو الكنيسة ، جلست على ركبتيها أمام مريم الأم . وهرعت إلى القرية بعد أن أكملت دعاءها . وقالت صارخة للنساء اللوتي كن ينتظرنها في الطريق وهي تصرخ :

ـ إنه قديس! إنه ملاك! إنه يعيش على أكل ثلاث زيتونات ، وشرب طاسة نبيذ ، وهو لايتثاءب ، ولايعطس ، ولا يتجشأ مثلنا نحن الفانين . وهو لا يعملها مثلنا نحن الفانين أيضاً .

لو طار موكتوس في أحد الأيام لما أدهش أحداً . ما يدهشهم هو عدم وجود هالة من النور على رأس موكتوس . حتى إن البعض ادعى أنه رأى على علو شبرين من رأس القديس موكتوس هالة من النور تسير معه .

أصبحت شهرة القديس موكتوس تنتشر من يوم إلى يوم . كانوا يقصدونه من أمكنة تبعد أياماً ، أو أشهراً لتقبيل يده ، ونيل دعائه . وفي أية

لحظة من لحظات النهار أو الليل ثمة مئات الأشخاص ينتظرون عند باب كنيسته ، لرؤية نور الرب المتلامع في وجهه . عندما يمر بيده على مريض يُعافى ، وإذا اعتنى بكسيح يمشي ، ويبصر الأعمى . كانت الطرقات المؤدية الى القرية مليئة بالمحرومين ، والمصابين بالصفرة ، والمسحورين ، ولتقبيل يد القديس موكتوس لاهثين .

إن القديس موكتوس يستطيع الارتقاء إلى إحدى درجات القداسة العليا المسيحية ، ومن الممكن له حيازة أعلى المراتب الكنسية ، لكنه لا يريد ترك كنيسة هذه القرية

القديس موكتوس لايرتكب أية محرمة ، بيده ، أو بلسانه ، أو ببصره . . باختصار لا يرتكب محرمة بأية من حواسه . رهن في طريق الرب حياته . ويجد ناقصاً كل ما يفعله . كل ما يريده تقديم نفسه في سبيل ربه . ولكن ماذا يمكن له فعله ؟ شن الحرب على الكفرة يفوق استطاعته ، وإشهار السيف وهمز الخيل فوق طاقته . ولكن كيف له أن يخمد نار القداسة التي تغلي في قلبه ؟

قضى ثلاثة أيام بلياليها يناجي ربه . وفي نهاية الليلة الثالثة تناهى صوت إلى أذنه :

ـ أيها القديس موكتوس ، سر نحو البحار . . أدخل قبساً من نارنا المقدسة إلى قلوب محاربي الكفار في سبيل الدين! . .

هبط القديس موكتوس الطريق جاعلاً أطراف جبته تتطاير في الهواء . وصل إلى الميناء ، كانت ترسو ست سفن ، امتدت كالتنينات في الماء . وهي تتأرجح على الموجات الهادئة وكأنها تتمطى .

ألقى القديس موكتوس على بلدة البحارة نظرة من عل على القرية . كانت الريح تعبث بشعره الطويل ولحيته القوية . جلس على ركبتيه ورفع يديه الى السماء :

ـ ظهر البحر لنا فلنذهب نحو الأعداء . . ولنسلب أرواحاً ، ونضحي

بأرواح . .

نزل إلى البلدة مطيراً أطراف ثوبه . كان ثمة خمارات للبحارة على شاطئ الميناء . كان القراصنة المخمورن يتعاركون ويتضاربون ويتبادلون الشتائم ويتمازحون بشكل ناب ، ومع العاهرات يتلاعبون ،والجميع عن طريق الصواب منحرفون .

فهم القديس موكتوس سبب إرساله إلى هنا بأمر رباني . يجب عليه أن ينادي هؤلاء المنحرفين إلى جادة الحق . رجا الساقي أن يعرفه على أحد رؤساء القراصنة . أخبر الساقي موكتوس أن ثمة قبطاناً لسفينة ألقت مرساتها للتو ، في الداخل . صعد موكتوس الدرج المصنوع من جذوع الأشجار . دخل الى غرفة القبطان القرصان . كان ثمة امرأة في حضن القبطان ، وأخرى تتكئ برأسها على ركبته وهو متمدد علي سريره . كانت الامرأتان شبه عاريتين . القبطان القرصان يلعب القمار مع ثلاثة قراصنة ، والمرأة التي في حضنه تجرعه باستمرار من طاسة الخمر .

وبصوت مخنوق قال القبطان المعصوبة عينه اليسرى بقماش أسود ، والموشومة ذراعه العارية بوشم عروس البحر متسائلاً :

ـ ماذا هنالك ياذا الجبة السوداء ؟

أخبره القديس موكتوس بأنه أتى من مناطق بعيدة لكي يضحي بروحه في سبيل الرب ، ويحقن قلوب الأبطال الذين سيهاجمون الكفرة بحب الدين . قال القبطان القرصان :

ـ إيه ، وماذا سيحدث بعد هذا ؟

قال القديس موكتوس :

ـ خذوني معكم على ظهر سفينتكم . .

كان القبطان مع كل ضحكة يطلق قهقهة كقطعة جليد تقذف من فمه . قال :

ـ بماذا تنفع أنت ياذا الجبة السوداء ؟

قال له القديس موكتوس متوسلاً :

ـ أدعو لكم بالنصر عندما ستهاجمون الكفرة ، وأحرض الأبطال بواسطة حب الرب الذي سأبثه في قلوبهم . أتوسل إليكم ، خذوني معكم .

قال القبطان القرصان :

ـ اسمع ، ذو جبة سوداء سيدخل سفينة ما وطأتها قدم امرأة ، أليس كذلك ؟ يبدو أن هذه السفرة ستكون مرحة جداً . تعال معنا لنر ياذا الجبة السوداء ، وليكن ما تريد . .

بعد الظهر سحبت ثلاث سفن مراسيها ، وأمخرت عباب البحر . شدت أشرعتها بالهوينى . ثلاثة تنينات تضيع وهي متجهة الى عرض البحر . ولكن الأمور تغيرت في الصباح الباكر . فجأة هاج البحر وعصفت الريح . غدت التنينات الثلاثة الضائعة في عرض البحر كقشرة بندق بين الموج . أدهشَ القديسَ موكتوس ما هو فيه . في البداية شعر بالدوار ، ثم فقد توازنه ، ثم صار يرتطم هنا وهناك ويتدحرج متكوراً ، ثم تقيأ .

كان البحارة أشباه الذئاب يتفرجون عليه وينحنون طاقين لشدة ضحكهم منه . في أثناء تدحرج القديس موكتوس إلى هنا وهناك وتقيؤه قال له القبطان القرصان :

ـ ياذا الجبة السوداء ، قلت لك إن هذه الرحلة ستكون مسلية . انظر إنك تسلينا بشكل جيد . .

كان موكتوس يئن وهو يقول :

ـ أنزلوني كرمى لله إذا كنتم تحبونه . أنزلوني إلى الشاطئ . .

قال القبطان القرصان :

ـ إذا أنزلناك إلى الساحل فماذا سيحدث للكفرة ؟ إذا ظهر الكفرة فمن سيمنحنا الجرأة ؟

ـ أنزلوني . .

ـ نرميك في البحر إن كنت تريد ، وهكذا تتخلص . .

جعل القديس موكتوس البحارة يمرحون كثيراً خلال اليومين بليلتيهما اللذين استمرت فيهما العاصفة . في صباح اليوم الثالث أصبح البحر منبسطاً كغطاء . الماء يحيط بهم من الجهات الأربع . اليابسة لا ترى . وبينما كانت الشمس تطلق أشعتها صرخ مراقب المقدمة :

ـ هيـ . . . . . . ـه ، سفيـ . . . . ـنة!

كانت ثمة سفينة شراعية تسير نحوهم . داعب القبطان القرصان شعرات صدره منبسطاً . وصرخ لرفاقه الشهوم :

ـ غزو جيد . سيروا نحوها! . .

سُر القديس موكتوس لوجود عمل له في النهاية . كان يتراكض من هنا إلى هناك ويهيّج البحارة في سبيل الدين . أنزلت أشرعة السفن الثلاث . وانهالت السياط على ظهور مائة قرصان مربوطين بالجنازير في قسم تحت مستوى سطح الماء . والتقط محكومو المجاديف مجاديفهم ، وسارت السفن الثلاث نحو الشراعية لكي يلتفوا حولها ويحاصروها ويسلبوا مالها ، ويأسروا رجالها . كان القديس موكتوس يطاير أطراف جبته ويذهب من هنا إلى هناك . يصعد مرة إلى السطح ، ثم ينزل إلى قسم محكومي التجديف عاملاً على تهييجهم قائلاً :

ـ في سبيل الدين يا أخوتي ، في سبيل الدين يا أخوتي . .

عندما كانت أطراف جبته تعيق حركة القراصنة ، كانوا يرفسون القديس موكتوس قائلين :

ـ انقلع من بين أقدامنا . .

كان القديس موكتوس لا يتوقف عن الصراخ حيث يتدحرج :

ـ في سبيل الدين يا أخوتي! . .

اتجهت السفن الثلاث نحوالشراعية لكنها لم تستطع بأي شكل إحكام الطوق عليها . كانت تنسل من بين التنينات الثلاثة من جهة ، وتقذف عليهم كرات اللهب من جهة اخرى . اشتعلت النار في إحدى السفن الثلاث . وبينما

كان القديس موكتوس يصرخ :

ـ هيا يا شهوم ، هيا يا أخوة الدين . . اليوم يومكم . . الرب ينظر إليكم من فوق . اصمدوا يا أخوتي . . أنهوا عمل الكافرين! . .

رفسه القبطان القرصان على مؤخرته عندما رأى أن أموره تسير نحو الأسوأ ، فصعدت روحه إلى أنفه ، فتدحرج القديس موكتوس على الدرج .

كانت كرات اللهب الملتاثة بالزيت تتساقط عليهم دون انقطاع . بعد هذا أمطرت عليهم سهام . بدأت تشتعل النار في السفينة الثانية . كان أخوته في الدين يتساقطون في البحر . سفينة القبطان القرصان الوحيدة الباقية على سطح الماء من السفن الثلاث . سارت الشراعية باستقامة نحو وسط سفينة القراصنة وصدمتها . قفز محاربوها إلى سفينة القراصنة . وبدأت معركة حياة أو ممات ، رأس لرأس ، وسيف لسيف . القديس موكتوس يقول :

ـ في سبيل الدين! . . اصمدوا يا شهوم! . . أنهوا الكافرين . . في سبيل الدين!

وضعف صوته بالتدريج ، وهرب من سطح السفينة إلى المراحيض .

عندما داهمه المحاربون في المراحيض كان يقول لنفسه :

ـ هيا يا أخوتي . . سيروا نحو الكفرة! . .

أسرت الشراعية الصغيرة سفينة ضخمة . ضُربت السلاسلُ على من فيها ، وربطتها إلى مؤخرتها وسارت بها إلى أحد الموانئ .

أغلقوا على القديس موكتوس باب إحدى الزنزانات . انتشر في بلده بسرعة خبر سقوطه في الأسر عند الكفرة . عندما علم الكفار بشهرة القديس موكتوس طلبوا مائة ألف فيلورين من أجل إطلاق سراحه . وكان المبلغ أكبر من إمكانية دفعه . الجميع مؤمن بالقديس موكتوس ، ولكن لأنه ما بيدهم حيلة ، صاروا يلطمون أنفسهم . كل شخص وضع ما يستطيع ، وجمعت النقود . ولكن أين ما جمع من المائة ألف فيلورين ؟ لم يُستطع جمع أكثر من عشرة آلاف فيلورين .

كان ثمة عاهرة من مدينة مسين تدعى كامينا . كان الرجال يصطفون عند باب دارها بالدور . كان أشجع الشجعان يرجع إلى الوراء خمسة عشر عاماً عندما يدخل حضنها . ليس ثمة من تفوقها عهراً . خربت بيوتا ، وأطفأت نيرانَ أخرى . الليلة التي كانت تعاني فيها من الوحدة ، تقضيها مع عشرين رجلاً على الأقل .

عندما علمت العاهرة المسينية كامينا بأسر القديس موكتوس ، أرسلت خبراً مفاده :

ـ إذاقَدَّمَ سنداً يتعهد فيه بالزواج مني سأدفع له المائة ألف فيلورين ، وأنقذ حياته! . .

كان القديس موكتوس مقيداً في زنزانة رطبة لا ترى النور في إحدى القلاع . ورُبطت قدماه بثقل كبير . عندما علم بخبر عاهرة مسين كامينا وقع السند وأرسله لها . سددت العاهرة المسينية المائة ألف فيلورين وأنقذت حياة القديس موكتوس . أطلق سراح موكتوس ، لكنه بعد إطلاق سراحه لم يعرّج على مسين ، ولم يف بوعده ، ولم يتزوج من كامينا . ورفعت كامينا دعوى إلى المحكمة ضد القديس موكتوس . وقال القديس موكتوس في المحكمة :

ـ السادة القضاة ، أنا رجل كامل الدين . وهبت روحي في سبيل الله . كيف أستطيع الزواج من امرأة خطاءة كهذه ، أطفأت حرارة كافة رجال الدولة تقريباً .

أخرجت كامينا السند من بين ثدييها المنتفخين ، وقدمته للقضاة ، وقالت :

ـ ها هو السند الذي أعطانيه ، إنه مضطر للزواج مني .

قال القضاة بعد أن قرأوا السند :

ـ أيها القديس موكتوس ، يا أبانا المحترم . نعلن آسفين أننا مضطرون لتطبيق القوانين ، فإما أن تتزوج هذه العاهرة ، أو سنلقي بك في السجن .

قولوا ما الذي تختارونه ؟
قال القديس موكتوس :
ـ سأتزوج .
ابتسمت كامينا المسينية للقديس موكتوس ، وغمزته قائلة :
ـ تعال إلى بيتي مساءً . أنا بانتظارك .
وذهبت .

عند المساء ذهب القديس موكتوس إلى بيت كامينا . كانت متمددة عارية تماماً على فراء نمر في صالة البيت . وكانت قد اندهنت بالعطور في كل مكان من جسمها الذي يشع نوراً . كانت تأكل فواكه وتشرب نبيذاً يقدمه لها عشرة رجال عراة تماماً مثلها . نظرت بعينيها الذابلتين إلى موكتوس وقالت :

ـ ماذا تريد يا أبانا المحترم ؟
قال القديس موكتوس :
ـ أتيت لكي أفي بوعدي .
أطلقت كامينا قهقهة ترددت أصداؤها في المكان . وقالت :
ـ هل صدقت بجد أنني سأتزوجك يا أبانا المحترم ؟ أنا أردت أن أفهم أي منا أكثر كفراً . وهل مائة ألف فيلورين كثيرة في سبيل توق كهذا ؟

وبعد أن قالت هذا ، رفعت مؤخرتها العارية من فوق فراء النمر ، وتناولت السند من تحتها ، وقدمته له ، وقالت :

ـ خذ وعدك هذا ، وانقلع من أمامي أيها الأب المحترم!

خرج موكتوس والسند بيده . شمشم السند المتعشقة فيه رائحة كامينا العاهرة ، وقبله ، ومسح وجهه فيه ، وسقط هناك ، حيث هو .

إلى الشرق كُر.. وإلى الغرب فُر..

كان في قديم الزمان دولة لم يدخل إليها الحساب ، ولا تعرف الجغرافية ، وضيعت التاريخ في غياهب النسيان . صار سكان تلك الدولة يتغيرون . بدأت رؤوسهم تغطس بين أكتافهم ، وتحدودب ظهورهم ، وتنحني خصورهم ، وإلقاءَ الخطو ما عادوا يستطيعون . لكنهم يمشون وأقدامهم يجرون . صار تغيرهم يتزايد من يوم إلى يوم ، وعندما صار كل الناس في هذه الحالة بدأوا يتشاكون :

ـ لم نعد نستطيع حملاً . .

ـ لم نعد نستطيع جراً . .

ارتفعت إلى السماء صيحات الألم للناس الذين غطست رؤوسهم بين أكتافهم ، وانحنت حتى وصلت إلى أحواضهم ، وما عادوا يستطيعون جَرَّ أقدامهم :

ـ لم نعد نستطيع جراً . .

ـ لم نعد نستطيع حملاً . .

تناهت هذه الأصوات إلى أذن رأس الإدارة ، فقال متسائلاً :

ـ من أين تنبعث هذه الأصوات النكراء التي تقض مضجعي ؟

قال المدراء الأدنى :

ـ يا مولانا هذه أصوات رعاياكم . كانت في البداية طنيناً فلم نصغ لها ،

بعد هذا أصبحت تأوهاً وتشكياً ، لم نعرها انتباهاً . فيما بعد أصبحت ضجيجاً ، فلم نشغل أنفسنا بها . لكنها مع الزمن زادت عن الحد . إذا تفضلتم بالأمر نقطع بعض حبالهم الصوتية ، فنحد من أصواتهم .

قال رأس الإدارة :

ـ مضى زمن طويل على العصر الوسيط . نحن الآن في العصر الجديد . إذا نظرتم إلى التقويم ستجدون أن اليوم الخميس . لايمكن أن نعيش الخميس كالأربعاء . ليجتمعْ الجميع غداً في الساحة الكبرى سأتكلم فيهم .

اجتمع الناس في الساحة الكبرى . دهش رأس الإدارة عندما رأى أمامه أناساً رؤوسهم مطأطئة وأكتافهم مهدلة ، وخصورهم ملوية . فتألم لهم ، وقال :

ـ و اخ ، واخ ، واخ . . ماذا جرى لكم ؟

كانوا يكررون دون توقف صارخين :

ـ لم نعد نستطيع جراً . .

ـ لم نعد نستطيع حملاً . .

استدعى رأس الإدارة بعض المسنين العاقلين منهم ، وسألهم :

ـ ما هذا ؟ احكوا لي! ما الذي لا تستطيعون جره ؟ احكوا بصراحة!

قالوا له :

ـ يا سيادة رأسَ إدارتنا ، حدث لنا ما لا نفهمه . كأن مطارق ، وكرات حديديةً ثقيلةً رُبطت بأقدامنا . . لم نعد تستطيع جر أقدامنا لنخطو . لم نعد نستطيع المشي . ومع الزمن يتزايد ثقل هذا الوزن غير المرئي الذي يشدنا إلى الأرض . إننا نخشى أن نتسمر مكاننا في يوم ما . ونغدو شجرة إنسانية .

قال رأس الإدارة :

ـ حسن ، فهمت . وما الذي لم تعودوا تستطيعون حمله ؟

قالوا له :

ـ كأن ثمة حملاً غير مرئي على ظهورنا . ومع كل يوم جديد يزداد هذا الحمل ثقلاً ، ويغدو على ظهورنا أكثر استقراراً . غاصت رؤوسنا بين أكتافنا ، وهجرتنا أضلاعنا ، ولم نعد نستطيع حمل أنفسنا .

لحظتئذ خاطب رأس الإدارة مالئي الساحة قائلاً :

ـ أيها المواطنون . لا تقلقوا أبداً . سيقوم الخاصة من علمائي بالبحث في الحمل غير المرئي المستقر على ظهوركم ، والثقل الذي يشد أقدامكم وستصبحون كما كنتم في الماضي تستطيعون الحمل والجر . .

انفض الجمع المالىء الساحة الكبرى فرحاً . وكل منهم يجرّ قدميه . وجمع رأس الإدارة الخاصة من علمائه في القصر ، وقال لهم :

ـ أنا أطعمكم على مدى كل هذه النسوات من أجل يوم كهذا . هيا لنر . لقد حل الزمن الذي ستدفعون لي فيه ولو جزءاً من دينكم . ابحثوا عن سبب عدم استطاعة شعبنا الجرّ والحمل . غير مهم ماستكتشفونه من أحمال وأثقال ، المهم أن يكون المكتشف لا يزعجني . هذه هي مهمتكم ، أليس كذلك ؟ هيا لنر ، اعملوا بما يناسب مطالبي ، وحولوا دون صراخ الشعب ، بالطرق العلمية .

قال الأربعون عالماً من الخاصة الذين يسكنون قصر رأس الإدارة :

ـ كما تأمرون يا سيدنا . إذا غذيتنا بأربعين كيساً من الفستق والعنب كل يوم ، طيلة أربعين يوماً ، سيتفتح ذهننا . وفي اليوم الأربعين سنبلغكم ، وبما يتماشى مع إرادتكم ، بالحمل الذي لم يعد يستطيع الشعب حمله ، والثقل الذي ما عاد يستطيع جره .

قال رأس الإدارة :

ـ ولكن في اليوم الأربعين ، إذا لم تقولوا ما يعجبني ، سأجعل كل واحد منكم قطعتين ، وأكثِّركُم فأصنع منكم ثمانين عالماً . ضعوا هذا في عقولكم . . .

ولكي لايضيعوا الوقت أمر بوضع العلماء الأربعين في جناح من القصر ،

وأغلق عليهم الباب وقفله . وكل صباح تفتح الأبواب ، ويترك للأربعين عالماً أربعين كيساً من الفستق والعنب ، ثم تغلق الأبواب ، وتقفل مجدداً .

يأكل علماء القصر الفستق والعنب لكي تتفتح عقولهم . وكاد يطير صواب رأس الإدارة لصياح : «لم نعد نستطيع حملاً . لم نعد نستطيع جراً . .» ، الذي كان يقض مضجعه . فيذهب عدة مرات في اليوم وينظر من ثقب الباب ليرى ما يفعله الأربعون عالماً . . كان العلماء يأكلون الفستق والعنب بالحفنات ، ثم يلعبون (العُصَمَينة) و(التقلة) . كان رأس الإدارة يقول لنفسه : «إذا لم يكن علمكم يناسب إرادتي ، سأجعل كلاً منكم أربعين قطعة ، وأضع كل قطعة أمام أربعين كلباً مسعوراً ، وسترون . . . .»

جاء اليوم الأربعون . أُخرج الأربعون عالماً من الجناح الذي أغلق عليهم . قال رأس العلماء لرأس الإدارة :

ـ يا مولانا عملنا أربعين يوماً ليلاً نهاراً ، وفكرنا ، وبحثنا . تعبنا كثيراً ، ولكن في النهاية وجدنا ماهية الحمل الذي يشكل عبئاً على شعبنا يا مولانا . شعبنا يستثقل ظله . لم يعد يستطيع الشعب حمل ظله . ظلال الناس لا تتركهم . لهذا السبب فهم لا يستطيعون الجري والسير كما كانوا فيما مضى . ولا يستطيعون الذهاب والإياب بسهولة . كلما شدتهم ظلالهم إلى أسفل ، يُسحقون وكأن على ظهورهم أحمالاً .

فرح رأس الإدارة وقال :

ـ وهل ثمة ما يماثل العلم . بلّغوا الشعب هذه النتيجة . أعداؤهم ظلالهم . إذا كانوا يريدون التخلص من أحمالهم ، والثقل المربوط بأرجلهم ، فليرموا عنهم ظلالهم .

أُبلغ الشعب بهذا الأمر . وفرح الشعب . ومنذ ذلك اليوم بدأت حرب ضروس بين الناس وظلالهم . جماعة منهم ، لكي يتخلصوا من ظلالهم ، ركضوا بكل طاقتهم ، ركضوا ، وركضوا ، ولكن لم يتخلصوا بأي شكل من ظلالهم . وعندما ينقطع نفسهم ، وينهارون في مكانهم ، ينظرون وإذ

بظلالهم مازالت عند أقدامهم . لم يستطع أحد الجري أسرع من ظله والتخلص منه . قيل إنهم كانوا يمتطون الجياد ويركبون السيارات ، ولكن مهما فعلوا فظلالهم لا تتركهم .

عندما يستيقظون في الصباح ، ينظرون إلى ظلالهم ، فإذا كانت على هذه الجهة ، يركضون بالاتجاه الآخر . ولأن ظلالهم تسقط غربهم من الصباح حتى الظهيرة ، يضعون ظلالهم خلفهم ويبدأون بالركض شرقاً . . وبعد الظهر تسبقهم ظلالهم ، وتبقى أمامهم حتى المساء . وهم من أجل أن يتخلصوا من ظلالهم يلتفتون إلى الخلف ، ويجعلون ظلالهم خلفهم ، ويركضون بلا توقف نحو الغرب . وهكذا يقضون كل أيامهم . وكل صباح عندما تشرق الشمس يقول عقلاؤهم :

ـ أيها المواطنون خلاصنا في الشرق . . لنوجه وجوهنا نحوالشرق ونركض .

إثر هذا يركضون كلهم سوية نحو الشرق . بعد الظهر تسبقهم ظلالهم ، وتصبح أمامهم . عندئذ يبرز بينهم عقلاء آخرون ، ويقولون :

ـ أيها المواطنون خلاصنا في الغرب . لنركض نحو الغرب! .

ومن أجل التخلص من ظلهم المشكّل لهم حملاً وثقلاً يركضون مرة إلى الشرق ومرة إلى الغرب ، مرة من الشرق إلى الغرب ، ومرة من الغرب إلى الشرق . ولكن على الرغم من كل ما فعلوه فلم يتخلصوا من حِمل ظهورهم ، ومن ثقل أقدامهم .

بعض العقلاء يصرخون صباحاً :

ـ لنركض نحو الشرق يا مواطنين!

عقلاء آخرون يقولون :

ـ كل هذه السنوات ونحن نركض نحوالشرق ، لكننا لم نتخلص من ظلالنا . إننا نذهب في طريق خاطىء . إذا أردنا أن نتخلص من ثقل ظلالنا فعلينا أن نركض نحوالغرب!

هذه المرة يقول آخرون :

ـ عودوا إلى الغرب ، ولتسبقكم ظلالكم ، عندها سترون ما سيحدث لكم . ولكن الآخرين لايسكتون ، إذ يقولون :

ـ هذا لأننا لا نركض بسرعة . لو ركضنا بسرعة سنسبق ظلالنا ، ونتخلص من الحمل الذي نحمله ، والثقل الذي نجره .

وبعد الظهر تسبقهم ظلالهم مجدداً ، وعندما يلتفتون الى الغرب ويركضون في الطريق المعاكس ، كان يصرخ العقلاء الذين اقترحوا الذهاب شرقاً :

ـ لا تعودوا إلى الغرب! إذا ركضنا بسرعة أكبر نحو الشرق سنتجاوز ظلالنا . .

لهذا السبب فقد بدأ نقاش ، وجدال لا نهاية لهما بين عقلاء وعلماء تلك الدولة . لم يستطيعوا الاتفاق بأي شكل على أية من الجهتين ، الشرق أم الغرب التي إذا ركضوا نحوها فسيتخلصون من ثقل ظلالهم . قال مجموعة من العقلاء الذين فهموا منذ سنوات عديدة أنه لا يمكن التخلص من الظلال بالجري على هذا النحو ، من الشرق إلى الغرب ، ومن الغرب إلى الشرق :

ـ أيها المواطنون! الحالتان خاطئتان . يجب ألا نذهب نحو الشرق أو نحو الغرب . . . الحالة الأفضل هي إيجاد المكان الذي يتوسط الشرق والغرب تماماً ، ونقف هناك .

وهذا أيضاً جربوه . عندما تصغر ظلالهم ظهراً كانوا يفرحون قائلين :

ـ الله! ها نحن نتخلص من ظلالنا . .

ولكن مهما صغرت الظلال ، وقصرت ، لا تزول نهائياً ، وبالتالي فإنهم لا يتخلصون من ظلالهم نهائياً . لأنه عندما يمر وقت الظهيرة ، تبدأ ظلالهم بالكبر ، والتطاول مجدداً . وحتى إنه قيل عن بعض هؤلاء كانوا يهربون إلى الغرب لكي يتخلصوا من ظلالهم .

وبينما يستمر النقاش ، ويتصاعد بين القائلين الى إلغرب ، والقائلين

إلى الشرق ، والقائلين لا إلى الغرب ، ولا إلى الشرق ، تعب الناس من الركض إلى هذه الجهة ، وإلى تلك ، ومن تصادمهم في أثناء الركض ، فبدأوا بالصراخ مجدداً :

ـ لم نعد نستطيع حملاً! . .

ـ لم نعد نستطيع جراً! . .

وكان رأس الإدارة لتلك الدولة يقلق من أصداء الأصوات المرتدة عن جدران القصر ، فقال صارخاً :

ـ ما هذا الضجيج ؟ لا أستطيع النوم!

قال المدراء الأدنى :

ـ يا مولانا هذا صراخ الناس الذين يركضون نحو الغرب والذين يركضون نحو الشرق ، والذين يقفون في أمكنتهم ولم يتخلصوا من ظلالهم بأي شكل من الأشكال . .

استدعى رأس الإدارة الأربعين عالماً من خاصته ، وقال لهم :

ـ أروني معرفتكم . أنا لا أطعمكم دون سبب . . خلّصوا الناس من ظلالهم! بحيث لا يخرج صوت أحدهم بعد هذه اللحظة . .

قالوا :

ـ أمركم على الرأس . إذا غذيتنا بأربعين كيساً من الفستق والعنب كل يوم ، طيلة اربعين يوما ، سيتفتح ذهننا ، وفي اليوم الأربعين سنجد الطريقة التي سيتخلص الناس بواسطتها من ظلالهم ، وبما يتناسب مع إرادتكم .

وأغلق رأس الإدارة أحد أجنحة القصر على الأربعين عالماً من خاصته ، وأقفل عليهم الباب . وكان يمنح الأربعين عالماً ، أربعين كيساً من الفستق والعنب كل صباح ، وتغلق الأبواب عليهم مجدداً . وكان يتجسس عليهم رأس الإدارة من ثقب مفتاح الباب لإشباع رغبته بالفضول حول ما يفعلون . كان الأربعون عالماً يأكلون الفستق والعنب ، ويلعبون (العصّمينة) ، و(التقلة) فتحت الأبواب في اليوم الأربعين ، وقال رأس العلم :

ـ أكلنا الفستق والعنب وتفتحت أذهاننا . ووجدنا على ضوء العلم ، وبما يناسب إرادتكم ، كيف سيتخلص الناس من ثقل ظلالهم .

قال رأس الإدارة متسائلاً :

ـ كيف ؟ . .

قال رأس العلم :

ـ يا مولانا . إنهم يتخلصون من ظلالهم ليلاً . هذا يعني أن الظل لا يعيش في الظلام . من أجل أن تتخلص الجماهير من ظلالها ، يجب أن يصبح الوقت ليلاً .

سأل رأس الإدارة غاضباً :

ـ ماذا سيحدث في النهار ؟

قال رأس العلم :

ـ نصبغ النهار بالظلام . نعمل سقفاً يغطي كل جانب بحيث لا يدع مجالاً لدخول ضوء النهار . ثم نرمي الذين يصرخون : «لم نعد نستطيع حملاً . . لم نعد نستطيع جراً» إلى هذا المكان المظلم المغلق . عندما يتركون ظلالهم خارج الباب ، ويدخلون تحت السقف المظلم ، سيتخلصون في الوقت نفسه من ثقل ظلالهم .

أمر رأس الإدارة بإنشاء المكان المظلم ، والذي لا ثقب فيه بمقدار رأس دبوس ، ولا يُدخل ضوء النهار . وكانوا يلقون القبض على كل من يصرخ : «لم نعد نستطيع حملاً . . لم نعد نستطيع جراً .» ، ويلقونه في ذاك المكان المظلم بعد أن يترك ظله عند الباب . وينقطع صوت الذين يصبحون دون ظل .

كانوا يجردون الصارخ من ظله ، ويلقون به في الداخل ، ويتركون ظله في الخارج . أصبح في الخارج ظلال ، وفي الداخل أناس لا ظل لهم . شعروا بضيق المكان المظلم ، فوسّعوه . مرة اخرى شعروا بضيقه فوسعوه مجدداً . وهكذا أغلقت تلك الدولة من كل جوانبها ، ومن أعلاها ، وأصبحت كلها

تحت سقف مظلم . بقي في الخارج مكان ضيق جداً مشمس . وفي هذه الأمكنة ، كان يتواجد رأس الإدارة ، والإدارة ، وشخصيات القصر ، وعلماؤه ، وكثير جداً من ظلال الذين ألقي بهم تحت السقف المظلم . كانت هذه الظلال تزول ليلاً . وتزحف على الأرض في النهار . ولأن هذه الظلال قامت بدور ظلال للبشر ، ورافقتهم ، تشكلت بشكلهم ، وأصبحت مثلهم . لكنها لا تستطيع بأي شكل النهوض على الأقدام ، وتزحف دائماً على الأرض . وغير هؤلاء ، ثمة بعض الناس الحقيقين ، ولكن لخوفهم من القبض عليهم ، وإلقائهم تحت ذاك السقف فلا يصرخون : «لم نعد نستطيع حملاً . . لم نعد نستطيع جراً » ، ولا ينبسون . وإذا استدعوا إلى التحقيق أحياناً ، وحتى إذا لم يستدعوا ، ولأن للحيطان آذاناً ، وخشية من سماع الظلال ، وإخبار رأس الإدارة ، يقولون :

ـ تعودنا . . نجر . . ونحمل .

لم يُسمع بعد ذلك اليوم ضجيج ، وصياح ، ونداء : «لم نعد نستطيع حملاً . . لم نعد نستطيع جراً . . » في تلك الدولة . ولم يعد رأس الإدارة يقلق في أثناء نومه .

تِرِيْ.. لِيْ.. لَمْ

كان يا ما كان . . لا ندري إن كان في العصور القديمة ، أم الوسطى ، أم الجديدة ؟ كان في مجهول الزمان . . كان يوجد دولة مجهولة في هذه الدنيا المعروفة . جائعو هذه الدولة أكثر من شبعيها ، مفكروها أقل من ثرثاريها . أغنياؤها يشكون الفقر . رؤوسهم مطأطئة على صدورهم . وأبصارهم موجهة إلى داخلهم ، وقلوبهم محجوبة عما يدور حولهم .

على رأس هذه الدولة شخص يلقب «الرأس الأكبر» . لا أحد في الدولة يخرج على طاعته ، وهذا ما يورّثه الأب لابنه .

ازدادت أوامر «الرأس الأكبر» ، ولم تعد تعرف لها نهاية . أصبح سكان تلك الدولة لا يحتملون أوامره المتزايد عددها ، والتي قست طبيعتها . ومن جهة أخرى ، لا يعرفون كيف يتصرفون في هذه المواقف التي لم يعودوا يستطيعون احتمالها . ازدادت أوامر «الرأس الأكبر» إلى أقصى حد لها . ومع هذه الضغوط بدأوا يفكرون قائلين لأنفسهم : «ماذا نفعل إزاءها ؟» . خرج عرافة منهم وقال في موضوعها :

ـ نبحث في تراثنا . ولنر ما كان يفعله أجدادنا عندما كانت أوامر «الرأس الأكبر» تقسو ، وتزداد ، ولنفعل مثلهم .

وجدوا نصيحة العارف مناسبة . بحثوا في تاريخهم . وجدوا أن أجدادهم كانوا يقطبون حواجبهم ، ويعبسون عندما تقسو أوامر «الرأس الأكبر»

ويزيد الضغط بقبضته على الشعب .

بداية ، فرحوا لأنهم استنبطوا من تراثهم درساً مفيداً أمام ضغوط الرأس الأكبر التي لا تحتمل ، ولا تطاق . قالوا : «ليس أمامنا سوى تقطيب الحاجبين ، والعبوس! » ، وقطبوا حواجبهم وعبسوا . ولكن هذا لم يخفف ضغوط الرأس الأكبر ، بل على العكس ، استمرت في الازدياد . وكلما ازدادت الضغوط ، ازدادت حواجبهم تقطيباً ، وعبوساً . قطبوا حواجبهم ، وعبسوا ، ثم زادوا من التقطيب والعبوس ، إلى أن وصلت حواجبهم إلى حد لم تعد فيه تقطب ، ووجوههم لم تعد فيه تعبس . لم يبق في وجوههم موضع خط أو شعرة دون عبوس أو تقطيب . أصبحت الدولة دولة المقطبين ووطن العابسين . مرت الأيام ، ودارت الأسابيع ، نسي الناس في تلك الدولة الضحك والفرح .

لم يعد فيهم من يتذكر الضحك ، ويعرف كيف يضحك الإنسان .

خرج واحد منهم ، قائلاً :

ـ نحن أغلقنا على أنفسنا . ولانعرف ماذا يجري خارج دولتنا . . لنختر ثلاثة مثقفين شبان من بيننا ، ولنرسلهم سراً إلى ثلاث مناطق مختلفة . وليبحثوا كيفية تصرف الناس هناك أمام الأنظمة القمعية . وليأتوا ويشيروا علينا ونحن ننفذ .

لاقت الفكرة قبولاً واستحساناً . اختاروا ثلاثة مثقفين شباناً . هرّبوا الشبان الثلاثة سراً ، دون علم الرأس الأكبر إلى ثلاث دول .

بقي الشبان الثلاثة في الدول الأجنبية الثلاث ، سنوات ثلاث . حققوا فيما يفعله المواطنون هناك ، ثم عادوا إلى وطنهم . اجتمع الناس بهؤلاء الشبان ، وسألوهم :

ـ ماذا رأيتم احكوا لنا . .

قال الشاب الأول :

ـ لم أجد مقطب حاجبين في المكان الذي ذهبت إليه . الناس هناك

يضحكون ويقولون : «تري لي لم . . تري لي لم» . ونحن إذا أردنا التخلص من ظلم الرأس الأكبر ، علينا أن نقول : «تري لي لم . . تري لي لم» ونضحك ، ونرقص .

حكى الشاب الثاني على النحو التالي :

ـ وأنا أيضاً لم أصادف أي عابس في المكان الذي ذهبت إليه . الناس الذين يعيشون في تلك الدولة يضحكون ويقولون : «لي ، لم ، تري . . لي لم تري» ونحن إذا أردنا التخلص من ظلم الرأس الأكبر . علينا أن نصرخ قائلين «لي لم تري . . لي لم تري» ونضحك ، ونمرح .

ما قاله الشاب الثالث :

ـ في المكان الذي ذهبت إليه لم يكن ثمة عابسون . الذين يعيشون هناك يقولون : «لم ، تري ، لي . . لم تري لي» ويضحكون . إذا أردنا أن نتخلص من أوامر الرأس الأكبر التي تزداد قسوة ، ولم تعد تحتمل ، علينا أن نقول : «لم تري لي . . لم تري لي» ونضحك .

ـ صحيح ، ولكن كيف نضحك دون أن نعرف معنى ما تقولون ؟ ألم تعرفوا معنى هذه التري ليلات ؟

قال الشاب الأول :

ـ وهذا ممكن هذا . . أنا لم أذهب فارغاً وعدت كما كنت . معنى «تري لي لم» هو : «يسمى نباح الكلب على كل شخص ما عدا صاحبه ، عندما يكون هذا النباح بدرجة صوت واحدة ولحن واحد : تري لي لم» .

حكى الشاب الثاني على النحو التالي :

ـ أما عن معنى «لي لم تري» ، فهو عندما نضع الذهب في كفة ميزان ، والبحص من الوزن نفسه تماماً في الكفة الأخرى ، ويصبح مؤشرا الميزان منحنياً بعضهما أمام بعض باحترام يطلق على هذه الحالة : «لي لم تري»

وما قاله الشاب الثالث :

ـ حول معنى «لم تري لي» : تسمى عملية التفريق بين العبد ، وسيده

عندما يخلعان ثيابهما في الحمام : لم تري لي »

قال كل من كان هناك :

ـ سعدنا لتعلمنا هذا . ليعمل المثقفون على شرح هذه المقولات للناس . ونحن أيضاً لنقل كما يقولون في الدول الأخرى : «تري لي لم ، لي لم تري ، لم تري لي » ونضحك ، ونفرح . تفرق المثقفون الثلاثة ، وغاصوا بين الناس ، وعملوا كما اتفق .

ـ تري لي لم . .

ـ لي لم تري . .

ـ لم تري لي . .

كلما تعالت الأصوات نحو السماء ، بدأت الوجوه العابسة بالابتسام ، والمقطبة بالارتخاء . كان ينبعث من كل مكان ، وكل بيت ، وكل ساحة صوت يقول : «تري لي لم . . لي لم تري . . لم تري لي » . عندما سمع الرأس الأكبر بهذا قطب حاجبيه وعبس وجهه . وقيل إنه كان يغضب كثيراً لهذه الأصوات . سد أذنيه فما استفاد . جلس خلف جدران سميكة فما نفع . لم يستطع التخلص بأية طريقة من هذه الأصوات التي باتت تهز الأرض والسموات . كلما ازداد ضحك المواطنين ، كان يزداد وجه الرأس الأكبر عبوساً . وكلما انفرجت أساريرهم كلما ازداد وجهه تقطيباً . عبس وقطب ، وعبس إلى أن غدا في وضع لم يعد فيه يستطيع أن يزيد من العبوس والتقطيب . عندها أصدر أمراً جديداً مفاده :

« يمنع الصراخ بقول تري لي لم . . لي لم تري . . لم تري لي . ومن سيصرخ هكذا سيسجن مدة عشر سنوات! . . »

لكن الشعب تعود على الصراخ والضحك إلى حد أنه لم يهتم لهذا القرار . ولكن الناس كانوا يصرخون جميعاً في آن واحد . لم يستطع الرأس الأكبر تحديد من سيلقي القبض عليه ، ويسجنه . زاد العقوبة :

ـ سيعدم الضاحكون رمياً بالرصاص .

لم يفعل هذا التخويف فعله .

إثر هذا فكر الرأس الأكبر بحيلة ذكية . استدعى إلى القصر المثقف الذي علم الشعب التري لي لم . وقال له :

ـ أنا سعيد جداً لسماع أصوات التري لي لم . أنتم تظنون أنني ضدها . من قال هذا ؟ . . من المؤكد أنه يجب على الشعب أن يقول تري لي لم ، ويجب أن تضحك وجوه الناس . ولكن لي عندكم رجاء . إذ أن تعريف التري لي لم طويل جداً . إن شعبنا لا يسطتيع حفظ الجمل الطويلة إلى هذا الحد . يا ترى ، ألا يمكن لكم حذف عبارتين من التعريف ، من أجل تسهيل الأمر على الشعب فقط ؟ ومقابل هذه المهمة سأخصص لكم مائتي ليرة ذهبية شهرياً من النفقات المستورة .

اقتنع المثقف بهذا الاقتراح . فقال :

ـ حسن . .

إثر هذا ، صار يردد التعريف للناس بعد حذف عبارتين منه قائلاً :

ـ يسمى نباح الكلب على كل شخص ما عدا صاحبه تري لي لم . .

استدعى الرأس الأكبر المثقف الثاني . وقدم له بعض المقدمات ورجاه أن يحذف عبارتين من تعريف اللي لم تري . وهذا لأن الشعب لا يستطيع حفظ عبارات بكل هذا الطول . فوافق هذا أيضاً مقابل تخصيص مبلغ مائتي ليرة ذهبية شهرياً . وصار يعرف للناس اللي لم تري على النحو التالي :

ـ انحناء مؤشري الميزان بعضهما لبعض عندما نزن الذهب والبحص . .

خدع الرأس الأكبر المثقف الثالث . وهذا أيضاً ، مقابل مائتي ليرة ذهبية قال للناس :

ـ خلع العبد وسيده ثيابهما في الحمام يسمى لم تري لي . .

ولكن بقي الناس يتضاحكون قائلين : «تري لي لم . . لي لم تري . . لم تري لي . .» ، ولكن لم يكن الضحك كما كان عليه في السابق . نقص

الضحك بمقدار عبارتين . ولم يعد وجه الرأس الأكبر عابساً كما كان في الماضي . فقد نقص العبوس عما كان عليه في السابق بمقدار عبارتين .

استدعى الرأس الأكبر المثقف الأول مرة أخرى وقال له :

ـ ألا نستطيع اختصار عبارتين أخريين ؟ مرادي أن يتعلم شعبي التعريف بشكل أسهل . وسأخصص لك من بند النفقات المستورة مائتي ليرة ذهبية إضافية .

قال المثقف :

ـ حسن . .

ووافق المثقف الثاني والثالث أيضاً .

أصبحت التري لي لم : نباح الكلب . .

واللي لم تري : وزن الذهب والبحص .

واللم تري لي : خلع الثياب في الحمام .

بقي الناس يتضاحكون قائلين : «تري لي لم . . لي لم تري . . لم تري لي . .» ولكن لم يكن الضحك كما كان عليه في السابق . . وبالمقابل ضحك وجه الرأس الأكبر بشكل أفضل .

استدعى الرأس الأكبر المثقفين الثلاثة فرادى إلى القصر ، وقال لكل منهم :

ـ أريد أن أسهل الأمر على الشعب . ألا يمكن حذف التعريف بشكل كامل والإبقاء على «تري لي لم . . لي لم تري . . لم تري لي . .» ؟ إنكم تفهمونني أليس كذلك ؟ ما أريده التسهيل على الشعب . ومقابل مهمتكم هذه سأخصص من بند النفقات المستورة لكم مائتي ليرة ذهبية إضافية شهرياً .

وجد المثقفون هذا الاقتراح معقولاً . . ومع اختصار العبارات من التعريف لم يبق أية كلمة . بقي : «تري لي لم . . لي لم تري . . لم تري لي . .» فقط .

لم يعد الناس يعرفون معنى هذه الكلمات ، وازدادت وجوههم عبوساً ، حتى إن الذين يعيشون في تلك الدولة أصبحوا أكثرتكشيراً مما كانوا عليه قديماً . وبينما كان الرأس الأكبر يكاد أن يموت من الضحك ، كان الناس العابسون ، المكشرون يصرخون ويرددون ، دون إدراك لما يعنون :

ـ تري لي لم . .

ـ لي لم تري . .

ـ لم تري لي . .

وهكذا أصبح الناس في تلك الدولة يصرخون منذ ذلك اليوم : «تري لي لم . . لي لم تري . . لم تري لي . .» من جهة ، والرأس الأكبر يستمتع بطعم الحياة من جهة أخرى .

ـ تري . .

ـ لي . .

ـ لم . .

لنتقدم، لننهض، لنسمو

أليست هذه حكاية . . ما دامت كذلك فسنبدأ القول : «كان ياما كان» . لو لم تكن حكاية وكانت خطبة ، كنا سنبدأ الكلام : «أيها المواطنون» . لكل حديث بداية خاصة به .

نعم ، كان ياما كان . . وبعد ؟ «كان في قديم الزمان ، كان الغربال في التبان ، وجني وأنسي بالكرة يلعبان ، وبناء حمام خربان . . »

إن هذه التي نسميها حكاية تبدأ دائماً بالسجع . . إنه سجع لركام من الكلمات . . كلمات لا معنى لها رُصِفَ بعضها وراء بعض .

حسن ، وماذا حدث بعد هذا ؟ بعد ذاك ؟ لأقلْ يا سيدي ، كان ثمة دولة على هذه الأرض . الدول كثيرة على سطح الأرض ، ولكن الحكاية التي سنحكيها لكم تجري في هذه الدولة .

كان ثمة دولة على هذه الأرض . كان بين سكان هذه الدولة ثلاثة أشخاص . فكر هؤلاء ثم قالوا : «لنذهب ونسُحْ في دول أخرى ، ولنر ماذا يوجد هناك» . وفعلوا ما فكروا به . ذهبوا إلى الدول الأخرى ، وساحوا فيها . عندما عادوا إلى دولتهم قال أحدهم :

ـ أنا تعلمت شيئاً جديداً في الأمكنة التي زرتها .

سألوه :

ـ ماذا تعلمت ؟

قال :

ـ تعلمت قول : «لنتقدم ، لنتقدم»

قال له مواطنوه :

ـ صحيح لنتقدم ياه . .

قال الرحالة الثاني :

ـ وأنا تعلمت شيئاً جديداً في الأمكنة التي زرتها . .

سألوه :

ـ ماهو ؟

قال :

ـ لننهض . لننهض . . هذا ما تعلمته .

قال له مواطنوه :

ـ صحيح ، لننهض ياه . .

قال الرحالة الثالث :

ـ وأنا أيضاً تعلمت شيئاً جديداً في الأمكنة التي زرتها .

سألوه :

ـ ماذا تعلمت ؟

ـ لنسمو ، لنسمو . . هذا ما تعلمته .

ـ صحيح جداً . لنسمو ياه . .

منذ ذلك اليوم أصبح الناس عندما يحادث بعضهم بعضاً يقولون : «لنتقدم» ، «لننهض» ، لنسمو» . ومع السنين اعتاد الناس على هذه الكلمات لكثرة تكرارها حتى أصبحت تستخدم بدل السلام ، ونُسيت كلمات : «مرحبا ، أهلاً وسهلاً ، صباح الخير ، مع السلامة ، أستودعك الله» .

عندما يلتقي صديقان في الطريق يقول أحدهما للآخر :

ـ لنتقدم .

يرد عليه الآخر :

ـ لنتقدم ، لنتقدم . .

عندما يتعارف شخصان ، ويصافح كل منهما الآخر ، يقول الأول :

ـ لننهض . .

يهز الآخر يد المصافح الأول قائلاً :

ـ لننهض ، لننهض .

ويلوح الأصدقاء من المودعين لصديقهم الذي يركب السفينة ، ويصرخون :

ـ لنسمو!

ويلوح الذي في السفينة بمنديله منادياً :

ـ نعم ، لنسمو ، لنمسو . .

وهكذا مرت السنون في تلك الدولة . وفي يوم من الأيام ، ذهب ثلاثة أشخاص من تلك الدولة لكي يسوحوا في دول أخرى . وعندما عادوا قال أحدهم لمواطنيه :

ـ أنا تعلمت شيئاً جديداً في الأمكنة التي ذهبت إليها .

سألوه قائلين :

ـ ماذا تعلمت ؟ . .

قال :

ـ من غير الممكن قول : «لنتقدم ، لنتقدم» . . وما تعلمته قول : «يجب أن نتقدم» .

قال مواطنوه :

ـ صحيح ، صحيح جداً ، من غير الممكن قول : «لنتقدم ، لنتقدم» . . يجب أن نتقدم .

قال الرحالة الثاني :

ـ وأنا أيضاً تعلمت شيئاً جديداً في الأماكن التي ذهبت إليها .

سألوه قائلين :

ـ ما الذي تعلمته ؟

قال :

ـ من غير الممكن قول وتكرير : «لننهض ، لننهض» . . بل ، يجب أن ننهض ، هذا ما تعلمته .

قالوا له :

ـ صحيح ، لا يمكن النهوض بقول : لننهض ، لننهض . . بل يجب أن ننهض .

قال الرحالة الثالث :

ـ وأنا أيضاً تعلمت شيئاً جديداً . .

سألوه :

ـ ما هو ؟

ـ من غير الممكن قول : لنسمو ، لنسمو . . بل يجب أن نسمو ، هذا ما تعلمته .

قال مواطنوه :

ـ في الحقيقة لا يكفي قول : لنسمو ، لنسمو . . ولكن يجب أن نسمو .

منذ ذلك اليوم بدأوا بترديد الكلمات الجديدة . عندما يلتقي صديقان في الطريق يقول أحدهما للآخر .

ـ لننهض!

يرد عليه الآخر .

ـ يجب علينا أن ننهض!

عندما يلتقي صديقان لم يركل منهما الآخر منذ مدة طويلة في مكان ما ، ويتعانقان ، يقول أحدهما للآخر :

ـ لننهض ، لننهض .

والآخر يجيب :

ـ يجب أن ننهض ، يجب أن ننهض .

والذين يذهبون لزيارة الأصدقاء أو الأقارب يقولون لأصحاب البيت :

ـ يجب أن نسمو!

ويقول صاحب البيت لضيوفه :

ـ نعم ، يجب أن نسمو ، يجب أن نسمو!

إثر هذا مرت كثير من السنوات ، وراح زمن ، وأتى زمن ، ذهب ثلاثة أشخاص من تلك الدولة إلى دول أخرى ليروا مافيها . وعند عودتهم قال أحد الأشخاص الثلاثة :

ـ أنا تعملت شيئاً جديداً في الأماكن التي ذهبت إليها .

سألوه قائلين :

ـ ما هو ؟

ـ من غير الممكن الاكتفاء بقول : «يجب أن نتقدم ، يجب أن نتقدم» . . يجب أن نتقدم ، ولكن كيف يجب أن نتقدم ؟ هذا ما تعلمته .

قال مواطنوه :

ـ كلام مناسب . يجب أن نتقدم ، ولكن كيف يجب أن نتقدم ؟

قال الرحالة الثاني :

ـ وأنا أيضاً تعلمت شيئاً جديداً في الأماكن التي ذهبت إليها . .

سألوه قائلين :

ـ ما الذي تعلمته أنت ؟

ـ لا يمكن النهوض بقول يجب أن ننهض . ما تعلمته هو سؤال : كيف يجب أن ننهض ؟ قال مواطنوه :

ـ صحيح ، من غير الممكن الاكتفاء بقول : «يجب أن ننهض ، يجب أن ننهض . بل علينا أن نسأل : كيف يجب أن ننهض ؟

قال الرحالة الثالث :

ـ وأنا تعلمت شيئاً جديداً .

ـ ما هو ؟

ـ لا يمكن الاكتفاء بقول : يجب أن نسمو . تعلمتُ سؤالَ : كيف يجب أن نسمو ؟ قال له مواطنوه أيضاً :

ـ صحيح جداً . من غير الممكن الاكتفاء بقول يجب أن نسمو . علينا أن نقول : كيف يجب أن نسمو ؟

ومنذ ذلك اليوم إذا دخل شخص إلى القهوة في تلك الدولة ، فيقول ذلك الشخص للجالسين فيها :

ـ لنتقدم . .

فيقول له من في القهوة :

ـ يجب أن نتقدم .

فيرد عليهم متسائلاً :

ـ كيف يجب أن نتقدم ؟

والأزواج عندما يستيقظون في الصباح يقولون لزوجاتهم عند خروجهم إلى عملهم :

ـ لننهض .

وبعد أن ترد الزوجات على أزواجهن :

ـ يجب أن ننهض .

يلوح الأزواج بأيديهم قائلين :

ـ كيف يجب أن ننهض ؟

ويهبطون الدرج .

ويقول الأطفال لأمهاتهم عندما يذهبون إلى النوم ليلاً .

ـ لننهض ياماما

وعندما ترد عليهم أمهاتهم :

ـ يجب علينا أن ننهض يا صغاري

يقول الأطفال لأمهاتهم :
ـ كيف علينا أن ننهض يا ماما ؟
ثم يقبّلون أيديهن ، ويتمددون في أسرتهم .
لم يسقط سكان تلك الدولة هذه الكلمات عن ألسنتهم لسنوات طويلة . راحت السنون ، وعادت أخرى . ثم خرج ثلاثة أشخاص من تلك الدولة إلى دول أخرى ، وساحوا فيها ، ثم عادوا إلى وطنهم . قال أحدهم :
ـ أنا تعلمت شيئاً جديداً في الأمكنة التي ذهبت إليها .
سأله مواطنوه قائلين :
ـ ما هو ؟
فأجاب على النحوالتالي :
ـ ماتعلمته هو عدم الاكتفاء بسؤال كيف يجب علينا أن نتقدم ، بل يجب أن نفكر كيف سنتقدم .
قالوا له :
ـ صحيح ، يجب عدم الاكتفاء بالسؤال . . يجب أن نفكر كيف سنتقدم . .
قال الثاني :
ـ وأنا تعلمت شيئاً جديداً . .
سألوه :
ـ ما هو ؟
ـ لا يمكن النهوض بسؤال كيف يجب أن ننهض ، بل يجب التفكير بكيفية النهوض . .
قال له مواطنوه :
ـ صحيح لا يمكن النهوض بسؤال كيف يجب أن ننهض ، يجب التفكير بكيفية النهوض . .
قال الرحالة الثالث :

ـ وأنا تعلمت شيئاً جديداً . لا يمكن السمو بسؤال : كيف يجب أن نسمو . بل يجب التفكير بكيفية السمو . . هذا ما تعلمته .

قال مواطنوه :

ـ صحيح جداً ، يجب التفكير بكيفية السمو .

ومنذ ذلك اليوم لم يعد أحد في تلك الدولة يسأل الآخر : « كيف حالكم ، هل أنتم بخير ؟ » ولاأحد يجيب : «الحمد لله ، شكراً لكم» . بدلاً من هذا يقول الشخص الذي يلتقي الآخر :

ـ لنتقدم ، لنتقدم . .

ـ يجب أن نتقدم ، صحيح ، يجب أن نتقدم .

ـ لا يكفي قول يجب أن نتقدم ، علينا أن نقول : كيف يجب أن نتقدم ؟

ـ كيف يجب أن نتقدم ؟

ـ لا يمكن التقدم بقول كيف يجب أن نتقدم ، بل يجب أن نفكر كيف سنتقدم . .

تمد النساء رؤوسهن من شبابيك بيوتهن ، ويتحادثن على النحو التالي :

ـ هيه . . يا جارتنا ، لننهض .

ـ هيه . . يجب أن ننهض ، يجب أن ننهض .

ـ لا يكفي قول يجب أن ننهض ، عليك أن تسألي : كيف يجب أن ننهض ؟

ـ ولا يكفي السؤال أيضاً ، يجب التفكير بكيفية النهوض . .

عندما يدخل المعلمون إلى صفوفهم كل صباح ، يقولون لتلاميذهم :

ـ لننهض ، لننهض يا أولاد!

ويجيب الأولاد :

ـ يجب أن ننهض يا أستاذ ، يجب أن ننهض .

ـ لا يكفي قول يجب أن ننهض . يجب علينا أن ننهض ، ولكن كيف يجب أن ننهض ؟

فيرد التلاميذ :

ـ لا يتم هذا بسؤال كيف يجب أن ننهض . بل يجب أن نفكر كيف سننهض ياأستاذ . .

وبعد طقوس التحية هذه يبدأ المعلمون الدرس .

مر زمان ، وعاد زمان . خرج ثلاثة أشخاص من تلك الدولة...

إيـ . . . . . ـه ، هل ستدوم الحكاية هكذا ؟ أليس لهذه الحكاية نهاية ؟ . . نعم . . ما هي نهايتها ؟ قُلْها! . . نهاية هذه الحكاية مثل نهاية كل الحكايات : هم نالوا مرادهم ، ولنتمدد نحن على أسرتنا . .

نحن معشر الإنسان

كان يا ما كان ، في جديد الوقت ، وقديم الزمان ، في الخلف والأمام ، في السابق واللاحق ، في الأمس والغد ، قبل ولادتي وبعد موتي على هذه الأرض في مكان ، كان ثمة مدينة ، وثمة بيت من بيوت هذه المدينة . ليكن من يقرأ هذه الحكاية ، أو يحكيها ، أو يسمعها في أي قرن كان ، وليكن في أي مكان كان ، فهذه المدينة موجودة في ذلك القرن ، وذلك المكان . وجرت هذه الحكاية في تلك الدولة . ومهما كانت لغة الذين قرأوا هذه القصة من قبلي ، أو سيقرؤونها من بعدي ، فمن يعش في تلك الدولة يتكلمْ تلك اللغة .

جرى ما جرى في الساعة الثامنة من ذاك الصباح عندما استيقظ رجل ذلك البيت . استيقظ ذلك الرجل وهو يدلك عينيه ويتمطى . نظر ، وإذ برأس مخيف يستند على المخدة التي يضع رأسه عليها . كان الرأس لوحش لم ير مثله ، ولم يسمع عنه . حفرت فيه عينا جاموسة كبيرتان في أعلى الجبين . وثمة أنف خنزيري لذاك الرأس يسحب الهواء وينفثه كمنفاخ . أذناه أذنا حمار . وبرز من تحت اللحاف مخلب نسر مكبّر مائة مرة ، وذيل كلب .

مع أن الرجل تمدد في السرير مساءً مع زوجته . وشاركها المخدة التي يشاركها فيها منذ ثلاثين سنة .

عندما فتح الرجل عينيه ، رأى في حضنه وحشاً مخيفاً ، فتح ذراعيه ، وألقى بنفسه إلى الجدار الذي خلفه ، وصرخ بأعلى صوته . قفز الوحش الذي استيقظ على هذا الصوت ، وسأل :

ـ مالك يا زوجي العزيز ؟

كان الوحش يتكلم مثل الإنسان ، وصوته صوت زوجته . ولكن صوت زوجته هذا أرق مما كان عليه ، وأحلى وأجمل .

قفز الرجل من سريره بالقميص والسروال الداخليين عندما سمع الوحش يتكلم بصوت زوجته . هرب إلى زاوية الغرفة ، وتكور هناك . نهض الوحش المرتدي (كومبينزون) من (الجورسيه) الزهري . إنه ليس وحشاً فحسب ، بل أم عمالقة . ثدياها ككيسي طحين فارغين ، رُفعا إلى كتفيها . وشعرها كمكنسة مثل شعر الساحرات . مدت مخلبها الأيمن نحوالرجل المرتجف خوفاً ، وسألته :

ـ مالك يا زوجي العزيز ؟ مالك ؟

آه من عذوبة وتأثير صوت أم العمالقة هذه . . ولكي لا يرى الرجل أم العمالقة ، أغلق عينيه بيديه ، وبدأ في الصراخ .

فجأة ، فُتح باب غرفة النوم . دخلت ثلاثة مخلوقات غريبة . إنها تشبه أفاعيَ ضخمة نهضت على قدمين . جلودها محرشفة . لكنها ليست أفاعيَ بالضبط . كان لها آذان طويلة لها وبر . ينسدل شعر أحدها كخيطان ليفية إلى كتفيها .

عندما رأى الرجل المخلوقات الغريبة الثلاثة خرجت عيناه من محجريهما ، وصرخ عندما استعاد صوته ، صاح بأعلى ما يمكنه :

ـ الحقوني! . .

ارتمت نحو الرجل ، ذات الشعر الليفي وقالت :

ـ بابا ، بابا

ثم الثلاثة معاً ، اندفعت نحوه ، وقالت :

ـ بابا ، بابا . . مالك ؟

كان الرجل خائفاً ومندهشاً . إن هذه المخلوقات الغريبة وهي مزيج من الأفعى والبغل والإنسان تتكلم بأصوات أولاده تماماً .

رمى الرجل بنفسه نحو الباب ، وصرخ :

ـ أماه!

كان لديه أمّ في الثمانين من عمرها . انبعث من الغرفة الداخلية صوت أمه :

ـ ماذا حدث يا بني ؟

عندما فتح باب الغرفة التي أتى منها صوت أمه ، كاد أن يسقط مغمياً عليه . كان في الداخل مخلوق بوجه إنسان ، وجذع متطاول لبقرة ، وليس فيه موضع دون جرح .

ـ ماذا حدث يا بني ؟

فم المخلوق في رقبته ، وأنفه وسط جبينه ، جذعه جذع بقرة ، وكان يتكلم بصوت أمه .

هرع الرجل . ارتدى ثيابه . وبينما كان يلبس ثيابه بسرعة ، أحاطت به المخلوقات الثلاثة التي تشبه الأفاعي ، وأم العمالقة ، والمخلوق شبيه البقرة . وقالوا له متسائلين :

ـ احك يا عزيزي مالك ؟

وتسأله ذات هيئة أم العمالقة :

ـ لماذا تنظر إلينا هكذا بخوف ؟

وقالت الأفعوانية ذات الشعر الليفي :

ـ لماذا ترتجف يا بابا ؟

صرخ الرجل :

ـ اغربوا ، اذهبوا!

وبصعوبة رمى بنفسه إلى الشارع . ولكن ما هذا ؟ في الشارع

ثمةمخلوقات غريبة لم يُر مثلها حتى ذلك اليوم . وهذه ليست إنساناً بشكل تام ، وليست حيواناً . رأس كركدن على جسم فيل . مخلوقات ذات وجه قردي ، وجذع جمل . وضفادع ذات رأس إنساني انتفخت بحجم بقرة تتقافز هنا وهناك . هذه لم تكن حيوانات أيضاً .

وبهلع فظيع ، وضع الرجل يديه على رأسه ، وبدأ الركض في الشوارع . لكنه لم يتخلص بأي شكل من وسط هذه المخلوقات المقرفة والمخيفة . ركض . ركض حتى أوشك نَفَسهُ على التوقف . صعد أدراج الدائرة التي يعمل فيها . وقد ملأت هذه المخلوقات الغريبة والمقرفة الدائرة . رمى بنفسه إلى غرفته . عبر إلى وراء طاولته وجلس على كرسيه . ضغط على زر الجرس منادياً الآذن . دخل ديك رومي برأس كلب يسير على قدمي إنسان ، وقال :

ـ أمرك يا سيدي . .

صرخ الرجل :

ـ سأجن ، سأجن . .

سأله شبيه الديك الرومي الداخل :

ـ لماذا يا سيدي ؟ هل ثمة ما يضايقكم ؟

إنه صوت معروف جداً له . إنه صوت آذنه . أغمض عينيه لكي لا يراه ، وقال :

ـ استدع لي السيدة ف . . فوراً!

ـ أمرك!

السيدة ف ، هي ضاربة الآلة الكاتبة في الدائرة . التي يحبها الرجل بجنون . كانت فتاة ليس ثمة من يفوقها جمالاً . بعد قليل فُتح الباب . دخلت فقمة جلدها كأنه مدهون بمادة لزجة . ولها أربعة قوائم كلب ، خلفها ذيل ضخم جداً ، وطويل ، أطول من أفعى .

عندمارأى هذا الرجل ، وضع يديه على وجهه وصرخ :

ـ من أنت ؟

قال المخلوق الشبيه بالفقمة :

- طلبتموني . .

قفز الرجل مذعوراً ، ودخل غرفةالمدير . كان يجلس إلى الطاولة وحش مقرف آخر .

واربه ، وقال لنفسه :

- هل أنا أحلم ، هل أنا أحلم ؟ هل أنا نائم ؟

رمى بنفسه إلى الشارع . الوحوش نفسها مرة أخرى . تلك المخلوقات الغريبة . عناكب تعملقت . أمهات أربع وأربعين بحجم الفيلة ، عقارب برؤوس إنسانية ، تماسيح بأرجل لقالق .

بدأ الرجل يركض بجنون في الشوارع ، ويرمي بنفسه من هنا إلى هناك . ويركض بكل ما يستطيع من قوة ، ويصرخ بأعلى صوته :

- أنقذوني أنقذوني . .

وتبعته كافة المخلوقات الغريبة التي رأته يصرخ ويركض بهذا الشكل . بدأوا يلحقون بالرجل من أجل أن يقبضوا عليه . كان الرجل يهرب . يظهر أمامه عقرب لكي يقبض عليه ، فيداوره ويهرب منه . يعرقله خنزير بري فيتدحرج الرجل ثم ينهض ويهرب من جديد . من جهة أخرى كان يصرخ :

- أنقذوني! الحقوني . .

استمرت هذه المطاردة في الشوارع ساعات طويلة . في النهاية حوصر الرجل متعباً ومنهكاً في حفرة وسط زقاق مسدود . كان مزيج الإنسان ـ الحيوان الذين يحيطون به يقولون :

- واخ ، واخ . جن المسكين! . .

ربطوا يدي الرجل وذراعيه ورجليه بقوة بالحبال . . لم يكف هذا . فضربوا على يديه ورجليه القيد ورموه في سيارة وأخذوه إلى قدام بناء ضخم . كتب على الباب : « مشفى الأمراض العقلية » أدخلوا الرجل ، ثم أخذوه إلى غرفة كتب على بابها : رئيس الأطباء . كان الرجل يئن قائلاً :

ـ أنقذوني . . ألا يوجد إنسان ؟ أنقذوني!

دخل مخلوق وجهه مخيف . أرجله أرجل سلطعون ، ويلبس صدارة طبيب بيضاء . قال :

ـ فكوه!

فكوا حبال الرجل وقيوده . أدار ظهره لمن في الغرفة وانكفأ بوجهه على ركبتيه . سأله المخلوق ذو الصدارة البيضاء بصوت رقيق :

ـ مالكم ؟

لم يرفع الرجل المتكور رأسه عن ركبتيه ، قال :

ـ لا شيء .

ـ لماذا لا تنظر إلي ؟

حكى الرجل ما جرى له منذ أن فتح عينيه في الصباح ، وقال وهو يئن :

ـ أين الإنسان ؟ أين الإنسان ؟ أنا أبحث عن إنسان!

صدر عن الرجل ذي الصدارة البيضاء ما يشبه الضحكة . وقال :

ـ فهمت ، فهمت . سأداويك بسرعة .

بعد هذا ، قال لسلحفاة ضخمة بجانبه :

ـ هاتي مرآة الأنا يا بنتي!

جلب مخلوقان ضخمان هما مزيج من الخنزير والسلطعون مرآة ضخمة . قال ذو الصدارة البيضاء للرجل المتكور والمغمض العينين :

ـ انظروا إلى المرآة التي أمامكم!

كان في المرآة خيال لمخلوق أكثر قرفاً ، وأكثر إرعاباً من تلك التي رآها منذ فتح عينيه في الصباح حتى الآن . كان هذا وجه إنسان جريح . يسيل من الجروح دم وقيء . طالت أسنانه . اثنان منها وصلا إلى أسفل الذقن . له عينان متورمتان بحجم الفنجان ، وعلى رأسه قرون متشعبة . جلده متحرشف . تضخم ، غدا مثل خنفساء بلون خضرة السم .

صرخ الرجل خوفاً أمام هذا الخيال المقرف والمخيف . وسقط أرضاً

مغمياً عليه . بعد أن نام فترة فتح عينيه وسأل بصوت مُتْعَبْ :

ـ أين أنا ؟

قال الطبيب ذو الصدارة البيضاء :

ـ إنكم هنا في المشفى . كيف حالكم ؟ هل أنتم بخير ؟

ابتسم الرجل وقال :

ـ أشكركم يا دكتور ، أنا بخير . .

قال الطبيب :

ـ من الآن فصاعداً ابحثوا عما تريدون البحث عنه في أنفسكم أولاً!

كان إلى جانب الطبيب مساعدتان جميلتان . شكرهما الرجل وخرج من هناك . كان في الطرقات أناس كما كان دائماً . عمل في دائرته حتى وقت الإنصراف . ثم ذهب إلى بيته . قال لزوجته :

ـ كيف حالك يا عزيزتي ؟

قالت زوجته :

ـ صباح الخير . استغرقتَ في النوم كثيراً هذا الصباح . الإفطار جاهز ، ونحن بانتظارك .

غسل الرجل وجهه بعد أن نهض من السرير . قبل أولاده . سمع صوتاً ينبعث من الداخل :

ـ كيف حالك يابني ؟

أجاب الرجل :

ـ حسن يا أمي ، وأنت بخير ؟

حكاية ذئب مختلفة

في يوم من الأيام ، كان في مكان عند المنعطف من الشرق إلى الغرب ، قرب الشمال ، بعيداً عن الجنوب ، يعيش راع وقطيعه ، ويحرسه عدد من كلابه .

مياه ذاك المكان رقراقة ، جباله وسهوله كيّسة ، أجواؤه معتدلة ، أراضيه خصبة سمواته السبع أخّاذة . لكن هذا الراعي لا يشبه الرعاة الباقين . فهو لا يعرف للرحمة معنى ، ولا يفهم الآخ أو الآه . كان ظالماً ، يحمل بدل الناي صفارة ، وبيده هراوة . والأغنام التي يحلبها ، ويجز صوفها ، ويبيع أمعاءها ، ويأخذ روثها ، ويسلخ جلدها ، ويأكل لحمها ، ويستغل حتى نخاعها ، ويستفيد من كل ما فيها ، لا يكن لها شفقة أو محبة .

يحلب الغنمات يومياً ثلاث مرات ، صباحاً ، وظهراً ، ومساءً . ومهما كانت كمية الحليب التي يحلبها ، يجدها قليلة ، فيحلبها حتى يسيّل الدم من أثدائها . وعندما تثغو الغنمات ذارفة الدموع من عيونها ، ونازفة الدماء من أثدائها ألماً ، ينهال الراعي الظالم بالدبوس على رؤوسها ، وبالسوط على ظهورها ، ويقول لها صارخاً :

ـ سأحلبكّن حتى يتهدل جلدكنَ ، ويفرغ جوفكن يا سافلات .

هذا الراعي الظالم ، الذي لا تسقط صفارته من فمه ، ولا يفارق دبوسه

أو سوطه يده يريد ان يحصل على أربعين كيلو غراماً من الحليب ، من غنمة لا تزن ثلاثين كيلو غراماً .

لم تحتمل الأغنام وحشية الراعي فكانت تتناقص من يوم إلى يوم . صارت الغنمات في القطيع قليلة . التي تموت تخلص ، والتي تبقى تضطر لتحمل إثم اللواتي متن . لأن الراعي يريد من الغنمات الباقية تعويض ما يخسره نتيجة موت غنماته التي لم تحتمل بطشه . وهكذا ، إذا بقي لديه غنمة واحدة ، فستضطر هذه الغنمة لتقديم حليب وصوف قطيع كامل .

تناقصت الغنمات من القطيع حتى لم يبق إلا القليل جداً منها لدى الراعي . وكان الراعي يغضب ويعصِّب ، ويجن لأنه كان يحصل على حليب ، وصوف ، وروث أقل مما كان يحصل عليه .

وكان يطارد أغنام القطيع المتبقية في الجبال والسهول حاملاً هراوته في يده ، ومطلقاً كلابه أمامه . كان بين الأغنام خروف . وكان الراعي يريد حلب هذا الخروف المسلول ، والحصول على حليب عشرين جاموسة منه . وكان غضبه على الأكثر من هذا الخروف لأنه لم يكن يحصل على قطرة حليب واحدة من الخروف ، لأنه خروف .

في يوم من الأيام ، غضب الراعي من الخروف ، فضربه ضرباً مبرِّحاً ، جعله يهرب أمامه . كان الخويرف لا يستطيع الجري . لم يحتمل العصي التي ضُربها ، فقال للراعي باللغة الغنمية :

ـ يا سيدي الراعي ، أنا خروف . قوائمي ليست مخصصة للركض ، بل للمشي .

الأغنام لا تركض . أتوسل إليك بأن لا تضربني ، ولا تلاحقني . .

لم يكن الراعي يستطيع فهمه . كان يظن موت الأغنام التي لم تحتمل الظلم خيانة له . فكان يصرخ :

ـ سافلات! على الرغم مما بذلته لحمايتهن ، في النهاية متن ، من أجل أن يخسِّرنني ويخنَّني فقط .

وكان يريد الانتقام منها بهذا الخروف المسكين .

ومع الأيام بدأ شكل أظلافه يتغير لكثرة هروبه إلى الجبال الصخرية ، والهضاب الوعرة للخلاص من دبوس الراعي القاتل ، أو هراوته . تطاولت قوائمه ، ورفعت . عندما صارت هكذا ازدادت سرعة ركضه هرباً . لكن الراعي لم يترك إليته . والخويرف مضطر للركض أسرع ، وأكثر ليتخلص من هراوة الراعي . ولكثرة تمرغه فوق الصخور المسننة انقلعت أظلافه ، ونبتت مكانها أظافر من نوع آخر ، مدببة الرأس ومعقوفة . لم تعد هذه أظافر بل مخالب .

لم يكن الراعي يستطيع إخماد غلّه بأي شكل . وكان الخروف يثغو :

ـ يا سيدي الراعي . أنا خروف . لماذا لا تريدون فهم هذا ؟ أنا خروف ، ولا يمكن لي التحول إلى شيء آخر .

لم يكن يفهم الراعي هذا الثغاء . ولكثرة الركض والهرب خفس بطن الخروف إلى داخله ، واستطال جسمه ، ومع الزمن بدأ يتساقط صوفه . وفي النهاية لم يبق على جسمه أثر للصوف ، وبدأ ينبت مكانه أوبار رمادية قصيرة .

لم يعد يستطيع الراعي ملاحقة الخروف . ليس الراعي فقط ، بل حتى الكلاب لم تعد تستطيع ملاحقته أيضاً .

كان الراعي يلاحق الخروف ، ويستمر بملاحقته حتى يحصره في مكان ضيق ، وهناك يضربه . كان الخروف يثغو :

ـ يا سيدي الراعي ، لست سوى خروف .

لم يكن يفهم هذا الراعي الذي يرغي ويزبد غضباً ، هذا الثغاء .

كان الخروف يحاول تشنيف أذنيه من أجل سماع صوت قدوم الراعي والكلاب . ومع تكرار محاولاته انتصبت أذناه وأصبحت مدببة قابلة للحركة في كل اتجاه . وبواسطة هاتين الأذنين كان يسمع وقع الأقدام من مسافة بعيدة ، ويهرب . ولكن ما الفائدة ؟ مهما فعل فما كان يتخلص من بين يدي

الراعي . كان يقبض الراعي على الخروف ليلاً لأن عينيه كانتا تعشيان ، ثم يضربه . وكان الخويرف يثغو باكياً :

ـ سيدي الراعي . أنا خروف . لا تحاول تحويلي إلى شيء آخر غير الخروف!

لم يفهم الراعي . لم يعد ينام الخويرف ليلاً . حدق بعينيه في الظلام . ولكثرة تحديقه كبرت عيناه ، وبدأتا تطلقان شرراً . وغدت عينا الخروفِ المتلامعتان كعودي كبريت في الليل تريان في الظلام أيضاً .

كان يستثقل إليته أثناء الركض . ولولا تلك الإلية لن يتمكن الراعي أبداً من القبض عليه . ولكثرة الركض ذابت إليته واستطالت . وفي النهاية أصبحت ذيلاً بشكل السوط . كان الخروف ينصبُ ذيلَهُ السوطي المتطاول في الهواء ويهرب . ولكن مهما عمل فلا يتخلص من بين يدي الراعي . كان الراعي يرميه من خلفه بالحجارة . كان الخروف يثغو :

ـ سيدي الراعي . أنا خروف . ولدت خروفاً . وأريد أن أموت كبشاً . لماذا ، ومن أجل ماذا ، ولفعل ماذا تضغط علي ؟

لم يكن الراعي يفهم . بدأ الخروف يهاجم الراعي عندما كان يحصره في حفرة ما لحماية نفسه من الضرب . وصل إلى حده الأعلى غضب الراعي الذي تملص من بين أنيابه . اضطر الخروف لاستعمال أسنانه . لكنه لم يكن يستطيع استعمال أسنانه داخل ذقنه المفلطحة . وبعد محاولات دامت أياماً بدأت أسنانه تنمو . وفيما بعد استطال لسانه أكثر . كان يثغو ولكن ثغاءه لم يكن كما كان عليه في الماضي . لكثرة الثغاء ، والتوسل غلظ صوته ، وأصبح خشناً .

كان الراعي يُحَوِّي كلابه على الخروف . لم تعد الكلاب تستطيع مجابهة الخروف كما كانت فيما مضى . كان الخروف يلقي أحد الكلاب أرضاً بضربة من مخلبه ، ويلقي آخر جانباً بعد أن يعضه من رقبته .

أما الراعي الذي جن جنونه لشدة حرصه ، كان يحاصر الخروف في

مكان لا يستطيع الهرب منه ، وينهال عليه بالضرب . بدأ الخروف يقول له بصوت أجش :

ـ لا تعمل هذا يا راعي . انتبه يا راعي . . ستكون النهاية سيئة يا راعي . .

كانت هذه التوسلات العصية على فهم الراعي تجعله يخرج عن طوره تماماً .

كان صباح يوم شتوي . استيقظ الراعي مبكراً على عادته . كل مكان مغطى بطبقة سميكة من الثلج . تناول الراعي دبوسه ليجعل بواسطته كل غنمة من الغنمات القليلة المتبقية لديه تحلب حليب عشر بقرات . كان سيذهب إلى الزريبة . خرج من الباب فرأى بقعاً من الدم الأحمر فوق الثلج . تلفت إلى اليمين وإلى اليسار . رأى أشلاء أغنام متناثرة . قُتلت كافة الغنمات ، ومُزِّقت . لم يبق من ذاك القطيع الكبير ولا غنمة واحدة .

ظلل عينيه بيده ، ونظر إلى البعيد ، فرأى الخروف . كان الخروف قد مد قائمتيه الأماميتين قدامه ، وتمدد بجثته الضخمة على الثلج . كان يلعق بلسانه الطويل الدماء من حول فمه .

ثمة كلبا حراسةيتمددان على جانبيه دون حراك .

نهض الخروف ، وسار بهدوء نحو الراعي . كان يشخر .

وبينما كان الراعي يتراجع إلى الخلف مرتجفاً . قال متمتماً :

ـ يا خروف . يا خروفي . . يا خروفي الجميل!

عوى الخروف :

ـ أنا لم أعد خروفاً .

تمتم الراعي مرة أخرى :

ـ خروف . يا خروف ، يا خروفي الجميل!

عوى الخروف قائلاً :

ـ في السابق كنت خروفاً . ولكن بفضلك أصبحت ذئباً!

ـ أنت خروفي الصغير ، الحباب والعاقل .

قال الخروف عاوياً :

ـ تأخرتَ كثيراً يا سيد راعي . . وانقض عليه .

أراد الراعي أن يهرب ، لكنه لم يتملص من بين مخالب الخروف المستذئب . وغرز أنيابه المدببة في رقبة الراعي . امتص الثلج دمه القاني والحار .

إن الذين يعرفون قراءة هذه الكتابة ، ومروا من هناك ، قرأوا الكتابة الحمراء المدونة على الثلج وعلموا بقصة الراعي والخروف . والناس منذ مئات السنين يتناقلون قصة الذئب من جيل إلى جيل .

شك شاك

ثمة عالم آخر لا يعرفه سكان هذا العالم المعروف . وفي ذلك العالم ثمة قارة سابعة لا يعرفها سكان قاراته الست ، وفي هذه القارة ثمة دولة لا يعرفها سكان تلك القارة . وكان سكان تلك الدولة المجهولون في تلك الدولة المجهولة ، من تلك القارة المجهولة من ذلك العالم المجهول يعيشون بحالهم وذاتهم .

وفي أحد الأيام ، ذهبت مجموعة رجال من هذه الدنيا المعروفة إلى تلك الدولة المجهولة في تلك القارة المجهولة من ذلك العالم المجهول . وقالوا لسكانها :

ـ أيها الناس المجهولون العائشون منذ زمن مجهول في الدولة المجهولة من القارة المجهولة من العالم المجهول! نحن أناس معلومون ، نعيش منذ زمن معلوم في دولة معلومة من قارة معلومة من العالم المعلوم . إننا نرى أنكم متخلفون جداً ، ودُهِشنا لهذا الحد من تخلفكم .

غضب الناس المجهولون في الدولة المجهولة من القارة المجهولة من العالم المجهول لهذه الكلمات وقالوا :

ـ لا ، نحن لسنا في دولة متخلفة .

سألهم القادمون من العالم المعلوم :

ـ كيف تثبتون عدم تخلفكم ؟

ـ نحن نصطاد الحيوانات والأسماك .
قال القادمو من العالم المعلوم :
ـ كان الإنسان قبل خمسة آلاف سنة يصطاد الأسماك .
قال الناس المجهولون :
ـ ولكننا نعمل في الرعي . ولدينا قطعان الأغنام ، ومرابط الأبقار . نحلب الماشية ونصنع الرائب .
قال الناس المعلومون :
ـ كان الذين يعيشون قبل أربعة آلاف سنة يعملون ما تعملون .
قال أناس العالم المجهول :
ـ لكننا نعمل في الزراعة أيضاً . نزرع ونحصد . ونعتني بالزرع والمزارع .
قال أناس العالم المعلوم :
ـ ما تقولونه يُعمل منذ ثلاثة الاف سنة .
قال أناس العالم المجهول :
ـ نحن ننتج القطن . ونزرع التبغ والشمندر . ونجمع البندق .
قال الناس المعلومون :
ـ هذه الأعمال التي تذكرونها تعمل منذ ألفي عام .
لحظتئذ ارتبك الناس المجهولون في الدولة المجهولة ، من القارة المجهولة من العالم المجهول وتساءلوا :
ـ عسانا فعلاً دولة متخلفة لم نتطور ؟
ردوا على تساؤلاتهم بأنفسهم :
ـ من الواضح أننا هكذا .
وسألوا أناس العالم المعروف :
ـ حسن ، ما الذي علينا أن نفعله لنتطور ؟ ماذا يجب علينا أن نفعل لكي نتطور ؟

قال الناس المعلومون في الدولة المعلومة من القارة المعلومة ، من العالم المعلوم :

ـ تعالوا وشاهدوا دولتنا ، واعملوا ما عملناه . انظروا إلى ما عملناه وطورناه!

دخلت هذه الكلمات عقولهم . ذهب الناس المجهولون من الدولة المجهولة ، والقارة المجهولة ، والعالم المجهول إلى الدولة المعلومة في القارة المعلومة من العالم المعلوم ، وأمعنوا النظر فيما عمله الناس المعلومون وعرفوا ما هو . ثم عادوا إلى بلدهم . قال أوائل العائدين :

ـ نحن فهمنا الفرق . عندهم آلات .

قال الذين أتوا بعد هولاء :

ـ عرفنا سبب تقدمهم . عملوا آلات فتطوروا . .

كان كافة القادمين من العالم المعلوم يقولون :

ـ الآلة .

ـ علينا أن نصنع الآلات لنتطور .

ـ لايمكن لنا أن نتطور إذا لم نعمل آلاتٍ .

عندما وحّد الجميع رأيهم على هذه الفكرة قالوا :

ـ إذا كان الأمر هكذا ، فلنعمل الآلات نحن أيضاً .

أُخرج المنادون إلى كافة أطراف البلد ، وأمروا بمناداة :

ـ ليأت الذين رأوا الآلات في العالم المعلوم ، والذين يفهمون بعمل الآلات ، لأننا سنعمل في بلدنا آلات .

اجتمع كافة الناس الذين يفهمون بالآلات ، أو رأوها ، بعد أن توافدوا من كافة أرجاء البلد ، وقيل لهم :

ـ كل ما تطلبونه بأمركم ، وكل ما تتمنونه جاهز . كل ما هو مطلوب منكم أن تعملوا آلة ، وتطوروا بلدنا . .

بدأوا العمل في الآلة . اشتغلوا ، واشتغلوا ، وبعد أن قضوا سنوات في

العمل ، نظر العاملون في الآلة إلى ما عملوا من بعيد ومن قريب ، من هذا الجانب ومن ذاك . من الأمام ، ومن الخلف ، من الأعلى ومن الأسفل ، وتساءلوا :

ـ ترى صارت ؟

قال الذين رأوا الآلات في الدولة المعلومة من القارة المعلومة من العالم المعلوم :

ـ صارت ، صارت . . إنها تشبه تماماً الآلات التي رأيناها هناك .

بعد هذا عمموا في كل البلد :

ـ صنعنا الآلة . وفي اليوم الفلاني سيعمل حفل افتتاح . ليأت الجميع ويروا الآلة التي عملناها .

اهتزت حتى الأرض طرباً لهذا النداء . وجاء الجميع لرؤية الآلة . وقال أكبر كبار البلد :

ـ عملنا آلتنا ، ومن الآن فصاعداً سنتطور .

قال أحد زوار العالم المعلوم :

ـ هذه من جهة كونها آلة ، فهي آلة ، ولكنني أشعر بأنها ناقصة . حسبما تعلق بذاكرتي من الآلات التي رأيتها في العالم المعلوم ، فإن لها دواليب ، وليس لهذه دواليب .

قالوا :

ـ نعم ، نعم . كان للآلات التي رأيناها دواليب . وليس لهذه دواليب . ليعمل لها دواليب فوراً . تنفيذاً لهذا الأمر انكب العمال والمعلمون على العمل . وعملوا مجموعة من الدواليب ، وركبوها في عدة أمكنة من الآلة التي نصبوها . لكنهم وجدوا الدواليب قليلة فزادوها . وهكذا صارت الآلة شيئاً ضخماً .

ولكن في هذه الأثناء قال أحدهم :

ـ يتهيأ لي أن لتلك الآلات التي رأيناها محاور . .

قالوا :

ـ نعم ، نعم . كان للآلات التي رأيناها محاور . ليعمل لها محاور فوراً .

باشروا العمل مجدداً وعملوا محاورَ كبيرة وصغيرة ، وركّبوها في الأمكنة التي وجدوها فارغة . وبإضافة المحاور التي استغرقوا سنوات طويلة بعملها ، كبرت الآلة إلى حد أصبحت لم تعد فيه تسعها المدينة التي توجد فيها . وعندما انتهى هذا العمل أطلقوا المدافع معلنين إنهاء العمل فيها . وعَيّدَ شعب تلك الدولة بهذه المناسبة ، وتهادى من كل حدب وصوب لرؤيةالآلة . قال أحد الكبار :

ـ هاه . . الآلة هكذا تكون . . ومن ناحية اخرى ، عملنا آلة كبيرة جداً .

قال واحد من بينهم :

ـ من ناحية الجمال ، فالآلة صارت جميلة . ولكن يتهيأ لي أن هذه الآلة ينقصها شيء ما . ألم يكن للآلات التي رأيناها اسطوانات ؟

قالوا :

ـ نعم ، نعم . حسن أنك ذكرتنا . كدنا أن نعمل آلة بدون اسطوانات . وكنا سننتظر تطورنا دون جدوى . لنعمل اسوطانات لهذه الآلة .

بدأوا بعمل الاسطوانات . وقضوا بعملها وتركيبها للآلة سنوات . كبرت تلك الالة وتضخمت ، وثلث الدولة غطت . وفي النهاية صارت آلة يقول كل من يراها : « دخيله ما أحلاها » .

أتى شباب وشياب ، مرضى ومعافون ، أطفال ورجال تلك الدولة لرؤية الآلة . قال كبار رجال الدولة :

ـ حلوة ، حلوة جداً . . هذه هي الآلة ، ولا شيء سواها .

ولكن قال واحد بينهم :

ـ ترى هل تخونني ذاكرتي . حسبما علق بذاكرتي ، فإن الآلة التي رأيناها كان فيها مرجلٌ ، أو حرّاقة أو شيء من هذا القبيل .

قال أحد الكبار :

ـ نعم ، صحيح . منذ مدة وأنا أفكر بأن هذه الآلة ناقصة ، ولكن ماذا ؟ نعم ياه . بالطبع هذه بحاجة إلى مراجل ، وحرّاقات . أيمكن أن تكون آلة بدون مراجل أو حرّاقات ؟ ليعمل مرجلٌ وموقدٌ ، وبوتقةٌ فوراً .

قالوا : « أمركم على الرأس » ، وانكبوا على العمل . عُملت المراجل والحرّاقات . وعندما امتلأت الآلة من كل جوانبها بالمراجل والحرّاقات ، أخبروا الكبار قائلين :

ـ لم يبق فيها موضع لتركيب مرجل أو حرّاقة . الظاهر أنها صارت .

مرة أخرى اجتمع الشعب فرحاً . وعندما رأى الآلة كبار الدولة القادمون وسط التصفيق ، قالوا :

ـ هاه . اسم الآلة لا يطلق إلا على واحدة كهذه . لم يبق أمامنا ما يعيق تطورنا . ها هي الآلة صارت .

قال أحد الموجودين هناك :

ـ ألا ترون أن هذه الآلة ناقصة ؟ كان في تلك الآلات التي رأيناها ما يدعى بكرات سرعة . أين بكراتها ؟

قال الآخرون الذين سمعوه :

ـ الله يعطيك العافية . كدنا أن ننسي ونعمل آلة بدون بكرات . أرأيت هذا . . لتُعمل البكرات فوراً ، ولتركّب إلى الآلة .

قُضيت سنوات بعمل البكرات الكبيرة ، والصغيرة ورُكِّبت إلى الآلة .ولكن الآلة كبرت ، وكبرت حتى غطت أكثر من نصف الدولة .

عندما ركِّبت البكرات بدأ عيدٌ لم يُر له مثيلٌ في تلك الدولة . توافد الناس إلى رؤية الآلة ، مع قرع الطبول وصوت الزمور . عندما رأى كبار رجالات الدولة الآلة التي تغطي أكثر من نصف الدولة قالوا :

ـ أوه ، الشكر والحمد لك يا رب ، في النهاية عملنا هذه الآلة ، فلا تخافوا بعد الآن سنتطور .

ولكن مرة أخرى ، خرج أحدهم قائلاً :

ـ أنا لا أذكر جيداً . . ولكن على ما أعتقد أنه يوجد أشياء أخرى في الآلات التي رأيتها . هاه ، نعم ، نعم ، تذكرت . . أنابيب ، أنابيب . . أين أنابيب هذه الآلة ؟ أيمكن ان تكون آلة دون أنابيب ؟ لكافة الآلات التي رأيناها أنابيب .

صاح الآخرون :

ـ طال عمرك ، دام عقلك . كيف نسينا هذا ؟ . . الأنابيب ياه . . الأنابيب . . أيمكن أن تكون الآلة آلة دون أنابيب ؟ كدنا أن ننسى ، وتذهب كل جهودنا سدى . يا الله ، لنعمل أنابيب لهذه الآلة . .

انكبوا على العمل . عملوا ليلاً نهاراً مضت سنوات ، وصنعوا الأنابيب ، وأينما وجدوا ثقباً أو فراغاً مرروا منه أنبوباً . كبرت الآلة ، وكبرت إلى حد أنها قاربت أن تغطي كل الدولة .

تراكض الناس بفرح عيدي لرؤية الآلة . نظر الكبار إلى الآلة ، وأمعنوا النظر ، ثم قالوا :

ـ صار كل شيء جاهزاً ، لم يبق أي نقص . . عملنا الآلة ياه . . صار بإمكاننا أن نتطور .

في هذه الأثناء برز واحد منهم قائلاً :

ـ أنا أشعر أنها مازالت ناقصة .

قال بقية الكبار :

ـ مستحيل . كبرت الآلة إلى حد لم يعد البلد يتسع لها . ما الذي يمكن أن يكون ناقصاً في آلة كهذه ؟ لا تُدخل الشقاق بيننا ، وتخربط عقولنا .

قال معارضوهم :

ـ احكوا ما تريدون أن تحكوه . هذه الآلة ناقصة . ألم تكن الآلات التي رأيناها تعمل : شك شاك ؟ الاسطوانات تروح وتجيء ، والدواليب تدور ،

والمسننات تتداخل . والبكرات تفرفر والمراجل تغلي ، والحرّاقات تشعل ، والمحاور تدخل وتخرج ، والأذرع تقوم وتقعد ، وتعمل ضجيجاً . ولكن آلتنا هذه لاتخرج صوتاً ، أو تكة .

فكر الآخرون ، ثم أمعنوا التفكير ، ثم قالوا :

ـ في الحقيقة هكذا كانت . كانت الآلات التي رأيناها تخرج ضجيجاً شك شاك ، شك شاك والبكرات ، والقشط والمسننات تدور . هذا يعني أننا عملنا الآلة ولم يبق إلا ضجيجها . هيا مزيد من الجهد ، ونعمل هذا أيضاً ، فتصير وتنتهي . .

عملوا سنوات وسنوات ، وبذلوا الجهود واشعلوا الحراقات ، وغلوا ماء المراجل وربطوا الاسطوانات بالمحاور ، والمحاور بالمسننات ، والمسننات بالأذرع ، والأذرع بالقشط ، والقشط بالأنابيب ، والأنابيب بالبراغي . عملوا وعملوا وفي النهاية بدأت الدواليب تبرم والمحاور تروح وتجيء ، والمسننات تدور ، والبكرات تعمل ، والمحاور الأسطوانية تنزلق ، والبراغي تخشخش . أحدثت ضجيجاً ، وصخباً أنَت له الأرض ، ورددت أصداءه السماء . صار من يسمع هذا الضجيج والصَخب يذرف دموعه فرحاً ، ويركض لرؤية الآلة . اجتمع سكان كل الدولة حول الآلة . وبدأت الاحتفالات .

وتقاول كبار رجالات الدولة متفاخرين :

ـ انظروا جيداً . أيخطر ببالكم شيء آخر ؟ لا تتركوا أي نقص في الآلة .

لم يخطر ببال أحد أي نقص . إنها مطابقة تماماً ، وبالضبط لتلك التي رأوها . قالوا :

ـ كل شيء على مايرام . فيها زيادة وليس فيهانقصان . لو كان ينقصها شيء ما ، هل كانت تعمل شك شاك هكذا ؟ حتى إن آلتنا أكبر من آلاتهم . اسمعوا هذه الأصوات ، وهذا الضجيج والصخب! أي ضجيج ، وأي صخب

ينبعث من آلتنا ؟!

قال الآخرون :

ـ نعم . علمنا الآلة . وشغلناها . صار بإمكاننا أن نتطور . لتعمل الآلة دائماً ، دون توقف لكي نتطور دائماً وبشكل متواصل . .

كانوا لايتوقفون عن إلقاء الحطب في حرّاقاتها . والحرّاقات لا تنطفىء ، والآلة تعمل .

كان كل يوم يزداد شعورهم بالفرح أكثر قليلاً عن اليوم الذي يمر بسبب تطورهم الناجم عن تشغيل الآلة . ولكن لأن هذه الآلة غطت غالبية أراضي الدولة ، فلم يعودوا يربّون الحيوانات ويزرعون ويبذرون ويحصلون على المواسم . ولكنهم فرحون على الرغم من كل شيء ويقولون :

ـ عندنا آلة ياه . . إننا نتطور . .

في أحد الأيام ذهب الناس المعلومون من الدولة المعلومة ، من القارة المعلومة من العالم المعلوم إلى الدولة المجهولة في القارة المجهولة من العالم المجهول . وقابلوا الناس المجهولين ، وسألوهم قائلين :

ـ ما هذا الضجيج الذي يمزق طبلات الآذان ؟

ردوا قائلين :

ـ هذه الآلة . إنها الآلة التي عملناها . . كلما اشتغلت الآلة نتطور .

قال أناس العالم المعلوم :

ـ تطور ؟ أي تطور ؟ صرتم أسوأ مما كنتم عليه . ما هذه الآلة ؟

قال أناس العالم المجهول :

ـ إنها تشبه تماماً آلاتكم ، حتى إنها أكبر من آلاتكم . . ها هي أنابيبها ، وها هي مسنناتها ، وها هي دواليبها ، وها هي براغيها ، ومراجلها ، وحرّاقاتها ، وأقشاطها ، ومحاورها ، وكل أشيائها ، وهاهي تشتغل . .

قال الناس المعلومون من الدولة المعلومة من القارة المعلومة من العالم

المعلوم :

ـ حسنٌ ، ولكن ما الذي تعمله هذه الآلة ؟ بماذا تفيد ؟ ماذا تنتج ؟ لماذا تشتغل ؟

قال اناس الدولة المجهولة من القارة المجهولة من العالم المجهول وهم مندهشون :

ـ آ آ آ ه . . وهل يجب أن تعمل هذه الآلة شيئاً ، أو تنتج أشياء ؟

ـ لماذا عملتم آلة لا تفيد بشيء ؟ ما الذي ستستفيدونه منها ؟

قال الناس المجهولون من الدولة المجهولة :

ـ هذا غاية في الصحة . . نحن عملنا الآلة ، فلنجعلها الآن تعمل شيئاً .

ثم قالوا لأنفسهم :

ألا تخرج ضجيجاً ياه ؟ هذا يكفينا ،اسمع : شك شاك ، شك شاك . .

دَولة الراحة

كان ثمة عالِمٌ مسنٌ جداً يبحث في التراث . كان عجوزاً إلى حد أنه لا يستطيع المشي . كل صباح ، كان تلاميذه يجلبونه إلى « مكتبة بابيبو » المكتبة الأغنى في العالم ، ويتركونه هناك . وكان العالم العجوز يعمل حتى المساء ، عندها يأتي تلاميذه مرة أخرى ويأخذونه إلى البيت .

صار العالم العجوز ، لكثرة القراءة ، واستمراره بها سنوات طويلة ، نصف مبصر . ولأنه لم يستطع رؤية الكتابة المكتوبة بأكبر الحروف . فكان يقرأ مستخدماً المكبرة . كان ينكب على الكتب ويغيب كأنه ينجرف مع سيل الصفحات .

كان في قبو مكتبة بابيبو كتب تعود الى العصور القديمة جداً ، لم تمسها يد إنسان منذ قرون عديدة . وكان العالم المسن يعمل باحثاً في هذه الكتب .

وفي يوم من الأيام وجد هذا العالم مخطوطة . عندما بدأ بقراءتها شدته . لأن الكتاب كان يحكي عن « دولة الراحة » ، التي لم يرد ذكرها في تاريخ أو جغرافية . والكتاب يحكي عن مكان هذه الدولة ، ويحدد خطوط الطول والعرض التي تقع عليها .

اندثرت « دولة الراحة » هذه . وكانت ستُعدُ في عداد الحضارات البائدة .

أصدر العالم العجوز بياناً علمياً ، ونشر على العالم خبر هذه الدولة غير المعروفة . بدأ المنقبون الآثاريون ، البحث والتنقيب في منطقة خطوط الطول والعرض التي حددها الكتاب . وعندما وصلوا إلى عمق خمسة أذرع رأوا تحت الأرض مدينة كبيرة ، على الأصح ليست مدينة ، بل مدن ، بل دولة . .

أَدهشت هذه الدولة المنقبين الآثاريين . لأنه لم يكن ثمة أثر لإنسان في هذه الدولة المندثرة ، الموجود فيها البيوت والطرقات والساحات والعربات ، وكافة الأدوات . بحثوا كثيراً فما وجدوا قبرا أو هيكلاً عظمياً .

كان في المدينة نُصُبٌ . وثمة كتابات على هذه النصب . ولكن لا أحد يستطيع قراءة هذه الكتابة الخاصة بهذه الدولة . وبعد عمل دام سنوات . استطاع علماء اللغة فك هذه اللغة البائدة ، ونجحوا بقراءتها .

كُتب على باب المدينة «دولة الراحة» . وعندما قرأوا الكتابات المدونة على المسلات اكتشفوا تاريخ الدولة ، وهكذا فهموا سبب عدم وجود أي أثر لإنسان .

تاريخ «دولة الراحة» المدون على المسلات على النحو التالي :

«أيها الإنسان! . . إذا مررت بهذه الأرض فاقرأ هذه الكتابة المحفورة على المسلات! واطّلع على ما جرى هنا! وخذ درساً مما جرى ، وارسم لنفسك نهجاً انطلاقاً من هذه العبرة» .

في أحد الأزمان . كان يعيش في هذه الدولة أناس سعداء . كان الناس يعملون ، ويتحابون ويتضاحكون ، ويتعايشون ، ويتكاثرون . بعد فترة سقط سكان هذه الدولة في التعاسة . لأنه ثمة دخان أسود بدأ يلف الدولة . في البداية لم يعرف أحد مبعث الدخان ومصدره . ظنوا أن بركاناً قد ثار . في الحقيقة ، كان الدخان الأسود كأنه ينبعث من فوهة بركان . هبط هذا الدخان فوق الساحات والطرقات والبيوت . ومع الزمن تزداد كثافته .

بعد بحث وتمحيص عُرف مبعث الدخان الأسود . كان ينبعث من فم

الرأس الأكبر الذي يدير دولتنا . كان كلما زفر رأسنا الأكبر ، أو فتح فمه يتدفق دخان مدقع السواد من فمه ، ويخيم هذا الدخان الأسود على دولتنا ، ولكن بسبب الاحترام أو الخوف فلم يجرؤ أحد على إبلاغ الرأس الأكبر بهذا .

خنقنا الدخان الأسود . صارت العين لا ترى ما أمامها ، والكبير لا يعطف على الصغير . ولم يعد أحد يعرف المحبة والاحترام . صار الناس يسحق بعضهم بعضاً . انقلب النظام رأساً على عقب . صارت الأقدام رؤوساً ، والرؤوس أقداماً . ولم يَعدْ يُعرف من يصعد إلى أعلى ، ومن يهبط إلى أسفل . وتعالى أنين المسحوقين إلى السماء . واختلط المصطدم بالساقط بالمتدحرج . ولم يعد يُعرف هذا من ذاك ، والنائب من المنوب والآخذ من السارق .

ولأن الدخان الأسود المنبعث من فم الرأس الأكبر ثقيل وكثيف فكان يهبط فوق الدولة ويرسخ . ولأن الرأس الأكبر في الأعالي فلا يَعرف ما يعاني منه الشعب . وعندما كان يقول من مقام سموه : «أيها الأخوة المواطنون . .» كان يهبط الدخان على الدولة . صار لا أحد يستطيع أن يتكلم أو يتنفس بسبب هذا الدخان الأسود . صارت حلوقنا تحترق ، وعيوننا تدمع . كنا نختنق .

ومع استمرار انبعاث هذا الدخان الأسود كنا لا نستطيع التخلص من هذه الخربطة . ولكننا لا نعرف ما الذي يجب أن نعمله لكي نخلص مما نحن فيه .

وفي يوم القيامة هذا ، ووسط هذه الخربطة ، سُمع صوتٌ :

ـ إذا صيرتموني رأسكم الأكبر ، سأخلص هذه الدولة من الدخان الأسود!

أصغى الجميع إلى هذا الصوت . كان صاحب الصوت من فريق عمل الرأس الأكبر .

جرت الانتخابات . أُنزل الرأس الأكبر من مقامه ، ورُفع إلى المقام شخص جديد . ولكن ليس ثمة ما تغير . إثر هذا قال الرأس الأكبر الجديد :

ـ أنا أستطيع طرد هذا الدخان الأسود ، ولكن علي أن أعمل . ومن أجل أن أعمل علي أن أرتاح!

قالوا له :

ـ كيف ستكون هذه الراحة ؟

قال :

ـ ليهدأ الضجيج والصخب! لا يصرخْ أحد فأرتاح!

إثر هذا صدر قانون يُمنع بموجبه كافة أنواع الضجيج والصخب . ولكن الدخان الأسود لم يتناقص . فقال الرأس الأكبر :

ـ أنتم لا تريحونني لأعمل .

قيل له :

ـ مستعدون لتقديم الراحة التي تريد ، كفاية أن تخلصنا من هذا الدخان الأسود! . .

قال الرأس الأكبر :

ـ اقطعوا الكلام . كلما تكلمتم تقلقون راحتي .

صدر قانون منع بموجبه كافة أنواع الكلام .

وفي ظلمة الدخان الأسود صار الناس يتصادمون ويتساقطون أكثر من السابق ، لكنهم لا يستطيعون الصراخ ، ولا الكلام .

كان الرأس الأكبر لايتوقف عن قول :

ـ أنتم لاتمنحونني الراحة لأعمل وأخلصكم من هذا الدخان الأسود . .

سألناه قائلين :

ـ كيف نريحكم ؟

ـ سعالكم يقلقني فلا أستطيع العمل . .

صدر قانون يُمنع بموجبه كافة أنواع السعال .

كان الدخان الأسود يتزايد . قال الرأس الأكبر :

ـ أنا قلق ، أريد الراحة . .

سألناه قائلين :

ـ ماذا يجب علينا أن نفعل ؟

قال :

ـ مسيركم على قدمين يقلق راحتي ، سيروا على قدم واحدة حجلاً لأعمل براحة . .

صدر قانون صار الناس بموجبه يسيرون على قدم واحدة حجلاً .

قال الرأس الأكبر :

ـ ما صار . ليس ثمة هدوء لأعمل . انبطحوا ، وازحفوا على يد واحدة ورجل واحدة!

وحسب القانون الصادر ، بدأنا ننحني إلى الأرض ، ونسير على يد ورجل .

لكن الدخان الأسود لم يتناقص ، بل ازداد ، عندئذ قال الرأس الأكبر :

ـ إنكم تقلقون راحتي . إذا لم تريحوني فكيف سأعمل ؟

ـ تفضل ، ماذا يجب أن نفعل ؟

قال الرأس الأكبر :

ـ لا يذهب أحدكم إلى هذه الجهة ، والثاني إلى تلك ، وأحد كم إلى الأعلى ، والثاني إلى الأسفل فهذا يُقلق راحتي . سيروا جميعاً في جهة واحدة .

قطر الجميع بعضهم بعضاً ، وبدأوا المسير .

قال الرأس الأكبر هذا وذاك . ونفذ كل ما قاله ، ولكن لم يرتح . كنا نؤمن أنه لو ارتاح سيخلصنا من الدخان الأسود . كنا نعمل ما بوسعنا من أجل تأمين راحته .

قال الرأس الأكبر :

ـ بينكم ثمة من يُقلق راحتي . هاتوهم لآكلهم . .

قلنا :

ـ لنضحي بشخص أو شخصين من بيننا في سبيل تخلصنا من الدخان الأسود . .

قدمنا له من يقلق راحته ، فأكلهم . وكلما التهم واحداً جديداً يصرخ :

ـ أنا قلق ، لم أرتح .

ـ من تريد ؟

ـ هذا . .

أكل الرأس الأكبر ، وأكل فلم يبق أحد . بقي من في القصر فقط . قال :

ـ إذا لم آكل هذا الوزير فلن أحصل على الراحة التي أريد .

ـ ليكن الوزير الذي تريد . يكفينا أن ترتاح ، وتخلص الباقين من الدخان الأسود .

راح الوزراء واحداً تلو واحد . وفي النهاية عندما أكل رأس الوزارة لم يبق أحد سواه إلا أنا . ولكن لأن الدخان الأسود تكاثف كثيراً فلم يرني . كان يقول الرأس الأكبر لنفسه :

ـ لم أرتح . الراحة! . . وبدأ يأكل أظافره . بعد هذا أكل أصابعه .

كان يقول لنفسه :

ـ لم أرتح .

مد فمه إلى جسمه وأكل قدميه ، ثم ذراعيه ، ثم ساقيه . بقي رأس وجذع مدمى ، كان يصرخ دون توقف :

ـ أريد الراحة!

وغرز أسنانه في جذعه ، وأكل نفسه ، أكل أضلاعه وكتفيه ، أكل نفسه لكنه لم ينهها . بقي هناك رأس مدمى فقط . كان ذاك الرأس المدمى يقفز من هنا إلى هناك ، ويصرخ قائلاً :

ـ أريد الراحة! . .

لم يعد يستطيع فمه الممتد إلى الفراغ أن يأكل ذاته .

مسكتُ الرأس من شعره . ونزلت إلى المدينة . نظرت ، وإذ لم يبق دخان أسود . كان ينبعث دخان خفيف من فمي . عندئذ فهمت الحقيقة . كان الدخان الأسود الذي يغطي الدولة ، هو دخاننا الأسود جميعاً . ولكن لأنه كان ينبعث من أفواهنا بشكل قليل فلم نَرَ دخاننا الأسود . وعندما يتجمع هذا القليل من الدخان الأسود المنبعث من أفواهنا يتكاثف ويغطي كل شيء .

حفرتُ هذه الأحداث على المسلة ليقرأها من يمر من هنا ، ولكي يتعلم الناس كيف يتخلصون من الدخان الأسود .

قبري أسفل هذه المسلة ، والرأس الذي لم يحصل على الراحة بجانبي .

لم تحصل «دولة الراحة ، على الراحة . .»

*

وهنا انقطعت الكتابة المحفورة على آخر مسلة .

الدبوس الضخم

يحكي الرجال العِتاق الذين رأوا الماضي ، وعاشوا الحاضر ، وعرفوا المستقبل عن أناس أسخياء أقوياء شرفاء عاشوا في يوم ما . أزواج نساء هذه الجماعة من نسب ، وجذر واحد ، شهوم شجعان من القتال لايكلون أو يملون ، وعن الصراع لايعودون ، ومعنى الخوف لا يعرفون ، وبإرادتهم يعيشون ، ومن هنا إلى هناك يرحلون ، ويضعون رحالهم حيث يشاؤون ، وينصبون خيامهم أينما يريدون . رجالهم ونساؤهم ، بناتهم وأولادهم ، أحفادهم وجدودهم ، كبارهم وصغارهم للخيل يمتطون ، وبالسيوف يتسلحون ، والسهول والجبال يجوبون ، وأحراراً يولدون وأحراراً يموتون .

راحت أيام وجاءت أيام ، برزت مجموعة شجعان من بينهم وضعوا في رؤوسهم فكرة التخلص من الترحال ، والسكنى في مكان ما مع ذويهم . ولكن لا تظنوا أن هذا أمر سهل . وهل من السهل إدخال هذا الكلام في عقول أناس لا يعرفون الوقوف أو المواقف ، المكان أو المنازل ، في السهول يقضون صيفهم ، وفي المغاور شتاءهم ؟

جمع أحدهم أبناء نسله وخطب فيهم :

ـ يا أبناء نسلي ، ونسبي ، يا أعزائي ورفاقي! . . تعالوا لنسكن مثل الآخرين . ولنتخذ لنا وطناً ، ولنؤسس بيوتاً ، ولنحول سهولنا إلى قرى ، وقرانا إلى مدن . .

حكى ، وحكى ولكن لم يقنع أحداً . وحسب قوانين تلك الجماعة فإن القوة العضلية مفضلة على القوة الفكرية لهذا عمل هذا الشجاع العرّاف دبوساً قضى في عمله أياماً طويلة . إنه دبوس رأسه بقدر رأس عملاق ، وطوله يناسب الرأس . . حول رأس الدبوس بروزات مدببة الرؤوس ، لو نزل هذا الدبوس فوق حي ، حتى لو كان هذا الحي سلطان العمالقة ، سيجعله مثقباً ويغوّره في التراب .

تدرب الشجاع الفطن على رفع الأثقال يومياً . بعد أيام صار يرمي حجر القنطار ويلقفه كما تُلعب (اللقيطة) . عندما تصلبت أضلاعه وصارت مثل الحديد حمل الدبوس واتجه نحو أبناء نسله ، وقال لهم :

ـ لامكان بعد الآن للأخذ والرد . في المكان الذي لا تسمع فيه الكلمة تُطاع العصا . ليجرب أحدكم ويعاكسني . أترون هذا الدبوس ، سأنزله على رأسه . وبعد إنزال هذا الدبوس على رأس أحدكم لن يبقى على الأرض جسمه ، أو اسمه . يا الله امشوا ، امشوا أمامي .

ومن سيكون معارضاً له ؟ . . كبير الشجعان هذا يلعب بالدبوس كما يلعب في ريشة الغراب .

كان بينهم من فأفأ ، أو كمكم ، أو تأتأ ، ولكن كبير الشجعان نزل بالدبوس على رؤوسهم فلم يبق لآكل الدبوس في الدنيا نَفَساً ، بل صار كرةً وطار . ثم إن الدبوس ، ياله من دبوس ، إذا ضُرب في مكان يسمع صوته من بعد مسير سبعة أيام بلياليها .

وضع النسل المذكور رحاله بجانب مجرى ماء ، وهناك سكن ، واتخذ من المكان وطناً . البيوت تأسست ، والأدوات والحاجيات صنّعت ، والأعمال في مجراها سيّرت ، ولأمورهم أساليب نظمّت . المزارع ، قرى صارت ، والقرى إلى مدن تحولت . تكاثروا ، وتكاثروا ، وتوسعوا ثم تكاثروا . . قوانينَ صاغوا ، وإداريين اختاروا . . وكل عمل في نصابه وضعوا . واذا عارض أحدهم هذا النظام يلتقط كبير الشجعان دبوسه ، ويطلق

صرختهِ : «أبعدوا ولاه» . وينزل الدبوس على رأس المخرّب .

بفرض أن المخرب ليس شخصاً واحداً ، بل ألف شخص . لن يستطيع الوقوف في وجه الدبوس ليس ألف شخص فحسب ، بل مائة ألف . إذا لوح رأس الشجاعة بالدبوس يجعله يصفّر باصطدامه بالريح عندئذ يركّع جيشاً من العمالقة .

راح زمان وجاء زمان ، لم تعد تسعهم المدن والقرى . في النهاية أسسوا دولة . ووُضع رأس الشجاعة ، على رأس الدولة ، وسُميَ رأس القادة . بينما الأمور تسير على هذا النحو ، صارت الدولة لا تتسع لهم . تناول رأس القادة دبوسه وقال :

ـ أيها المحاربون ، أيها الشجعان ، اتبعوني! . .

تبع رأس القادة من تلقف سيفه ، وقفز على حصانه . ركعوا من يعيش في الدولة الجارة وتوسعوا فيها . وأخذوا كل ما أعجبهم وكان قيماً . وربطوا ذلك الشعب بضريبة وعادوا إلى مكانهم .

ولأنهم مدانون بكل هذه النجاحات للدبوس ، فقدسوه . ووضعوه دائماً وأبداً وفي كل زمان أو مكان في المقدمة . .

راح زمان وجاء زمان تمدد رأس القادة على فراش الموت وبينما كان يلفظ أنفاسه الأخيرة نادى ابنه إلى جانبه ، وقال له :

ـ يا بني أنا أسست هذه الدولة بهذا الدبوس . والآن أترك لك هذا الدبوس المقدس . اعرف قيمة هذا الدبوس واستعمله . كن كما أنت ، ولا تستخف بالدبوس . إن هذا الدبوس يلبي كافة احتياجاتك .

عندما أكمل الأب أيامه وانتهى شغله ، جلس ابنه مكانه . ولكن بدأت هنا وهناك من الدولة تتردد مقولات : «كيف يجلس هذا الغر على رأسنا ؟» ، وحدثت انتفاضات .

لكن الشاب تناول الدبوس الموروث عن أبيه ، ولوح به في الهواء تماماً مثل أبيه ، وكما تعلم منه ، وهجم على المنتفضين . ومن يأكل ضربة

بالدبوس يصير غباراً أو دخاناً . تحولت تلك الدولة إلى مكان صامت أخرس .

بعد أن حقق الشاب الشجاع في الداخل السكينة ، والطمأنينة ، سار نحو الدولة الجارة . وسار إلى الدولة التي على الميمنة . وبعد أن دخلها وعلى مستوى الأرض جعلها . ربط من هناك بالضرائب أيضاً . وعاش يقظاً مستعداً ، وبالدبوس مسلحاً .

وبعد مدة من الزمان ، عندما صار عجوزاً ، ترك الدبوس لابنه ، وورَّثه مكانه . ومنذ ذلك اليوم والدبوس ينتقل من ولد إلى ولد . وصاروا يطلقون اسم : « سلطان » على من يمسك الدبوس .

راح زمان وجاء زمان ، خرج من بين السلاطين سلطان ، وقال :

ـ لا يليق بنا التقوقع والوقوف ، والانحلال والجلوس . سيصدأ دبوسنا . لنهجم على أعدائنا ونحرك دبوسنا ، ولنجدد حملات آبائنا . .

شنوا حملة على الدولة الجارة فوقهم . وكان سكان تلك الدولة قد أحاطوا دولتهم بحيطان سميكة لخوفهم . هذه الحيطان لا تعرف الهدم أو الثقب . كان السلطان يشد على نفسه ويشد ويشد ويهوي بدبوسه الضخم على الحيطان : بُم بم . وكأن الحيطان تقول له تعال إلي مرة أخرى ، لن تستطيع شيئاً . وقوف بعوضة على مؤخرة فيل مثل ضرب الدبوس على الحيطان .

ويصرخ السلطان :

ـ هيه يا سباعي ، هيه يا شجعاني! ألا يوجد في هذه الحيطان موضع فسخ أوباب ؟

غير موجود . ارتدوا عن تلك الحيطان دون أن يستطيعوا فتح ثقب بمقدار إصبعين . أسسوا هيئة استشارية . واستشاروا العلماء والحكماء عن « حقيقة هذا الأمر » خطب فيهم السلطان :

ـ يا علمائي وشيوخي وحكمائي . يا للدهشة من هذا الأمر ؟ أنا مثل

والدي تماماً أطلق الصيحات ، وأهجم بالدبوس . قوتي ليست أقل من قوة أجدادي ، وفطنتي ليست أقل من فطنتهم . لماذا صمدت حيطان أعدائنا في وجه دبوس أجدادنا ؟

قال رأس الحكمة :

ـ يا سلطاني ، شجاعتك شجاعة القدماء ، وفطنتك فطنة القدماء ، وقوتك قوة القدماء ، ودبوسك دبوس القدماء . ولديك زيادة عن آبائك وليس نقصان ، ولكن هذا الزمان ليس ذاك الزمان . ففي زمن أبيكم كان شبرين فقط سماكةُ الحيطان . والآن لخوفهم من سقوط الدبوس على رؤوسهم كبّروا عقولهم ، وإلى أربعة أشبار سمَكوا الحيطان .

بعد هذا ، قال السلطان :

ـ واخ ، واخ ماذا يعني هذا ؟ هل راح الدبوس من يدنا ؟

وبطح رأس الحكمة ممرغاً أنفه ، وبقوة ربطه ، فقال رأس الحكمة له :

ـ لا بأس عليك يا سلطان . نعمل دبوساً طوله ضعف طول هذا ، ووزنه ضعف وزن هذا ، وعدد أسنانه ضعف عدد هذا ، وإذا صَرختم صرخة تساوي ضعف صرخة والدكم ستصبح حيطان مدينة الأعداء تحت دبوسكم المقدس رملاً ، وتتطاير .

عُمِلَ بقول رأس الحكمة . مسك السلطان الدبوس من قبضته . لكنه لا يبدو أنه سيتحرك من مكانه .

ولهذا الأمر أوجد رأس الحكمة مخرجاً :

ـ اعتباراً من الغد . في اليوم الأول تأخذ كبشاً وترفعه ، خلال سبعة أيام تعتادون على رفع الكبش . بعدها تبدأون برفع عجل رضيع . بعد أن تعتادوا على رفع العجل مثل الريشة ، ترفعون عجلاً كبيراً ، بعد هذا ترفعون البقر والتيوس والثيران من قوائمها . ثم تحاولون رفع الدبوس .

عمل السلطان ما قاله رأس الحكمة حرفياً . بعد فترة من الزمن ، تصلبت أضلاعه ، وازدادت قوته إلى حد لو أنه أسند القصر الذي يسكن فيه

إلى ظهره ، وقال ياالله ، سيرفعه . عندما صار يرفع الدبوس الضخم بيده مثل العكاز صرخ قائلاً :

ـ أيها الشجعان! اتبعوني سنشن حملة .

ساروا نحو الأعداء . عندما أطلق السلطان صيحة ، ونزل بالدبوس على الجدران ، جعلها هباءً منثوراً . غزوا الدولة الجارة ، وربطوها بالضريبة ، وعادوا إلى وطنهم .

راح زمان وجاء زمان ، عندما جاء يوم أجل السلطان ، ترك الدبوس لابنه ، قال السلطان الجديد :

ـ لا يليق بنا تقطيع الوقت ، والتلوي على هوانا ، قبل أن يصدأ الدبوس لنهجم على أعدائنا . .

ساروا نحو الدولة الجارة تحتهم . . كلما قرع السلطان حيطان قلعة الأعداء بالدبوس كان يصدر عن الحيطان صوت كصوت نقر البطيخ والقرع الرومي بالاصبع ، ولم تتفسخ طوبة واحدة . ضربوا الجدران ، وضربوا ، وكأن الدبوس دقاقة تدق على باب ، والجدران لا ترد ولا تصد . التفتوا إلى ورائهم وعادوا إلى ديارهم . وبأمر من السلطان اجتمع علماؤهم وحكماؤهم ، وقال لهم :

ـ إيه أيها السادة! هل سنخسر السلطنة التي أسسها آباؤنا وأجدادُنا ؟ ما سر هذا الأمر ؟ كيف تقاوم حيطان قلاع العدو دبوسنا . عن آبائنا ماذا ينقصنا ؟ وما الذي عنهم يخلّفنا ؟

قال رأس الحكمة :

ـ يا سلطان! شجاعتك شجاعة القدماء ، وفطنتك فطنة القدماء ، وقوتك قوة القدماء ، ودبوسك دبوس القدماء . ولكن الحيطان ليست حيطان القدماء . كانت سماكتها عشرة أشبار أيام والدكم ، صارت اليوم عشرين شبراً . . . لنكبّر الدبوس طاقين ولنثقله ضعفين ، ولنذهب نحو الأعداء .

عملوا ما قاله رأس الحكمة . صار الدبوس جبلاً ضخماً . لا توجد قوة

تحركه . لو استطاع السلطان أن يلعب بالفيلة بدلاً من الكرات فلن يرفع الدبوس . إثر هذا ، قال رأس الحكمة :

ـ يا سلطاني! إذا مسكتم الدبوس من طرفه ، ومن الطرف الآخر يمسكه الصدر الأعظم والوزراء ، سترفعونه ، وتهوون به ، وتهوون ، وتنزلون به على حيطان قلعة الأعداء صارخين يا الله ، فستتفسخ الحيطان ، ويفتح الدبوس ثقباً تمررون الجيش منه .

عملوا ما قاله رأس الحكمة ، واستباحوا تلك الدولة ، وأسسوا هناك سلطة .

راح زمان وجاء زمان كبر الدبوس وكبر ، وانتقل من أب إلى ابن ، وبعد مدة صار لو كتبنا في حجمه كتباً لما اتسعت هذه الدنيا لهذه الكتب ، ومن ثقلها لتهدمت . وكلما سمّك الأعداء قلاعهم ، كلما كبّروا دبوسهم .

يحكي الرجال العتاق الذين رأوا الماضي ، وعاشوا الحاضر وعرفوا المستقبل عما حدث بعد هذا ثلاث حكايات مختلفة .

قسم منهم يقول : كبر الدبوس حتى غطى العالم . صار غير معروف من أين سيرفع ، وأين سيضرب . وما عاد بالإمكان تحريكه .

وقسم آخر يقول : صار يلزم لرفع الدبوس أعداد من الرجال لو اجتمعوا على الدبوس لما وجدوا فيه متسعاً لا لرفعه ، بل للمسه بأصابعهم .

أما الآخرون فيقولون : انقسم حملة الدبوس إلى قسم قاده السلطان ، وقسم قاده الصدر الأعظم ، وقسم قاده الوزراء . وصار ما صار ، وما عاد الدبوس ينفع بشيء .

قال السلطان متسائلاً :

ـ يالطيف! ما هذا الذي صار ؟ ماذا ينقصنا عن أجدادنا ؟

اجتمع العلماء والحكماء ، وقالوا :

ـ أنتم لا تنقصون بشيء عن أجدادكم . وهذا هو السيء في الأمر ياه . . شجاعتك وفطنتك وقوتك هي بالضبط شجاعة وفطنة وقوة القدماء . أما

الحيطان فما عادت حيطان القدماء . والزمان ما عاد سالف الزمان .

فقال :

ـ هل هذا يعني أن الدبوس ما عاد ينفع بشيء ؟ هذا يعني أن شغلنا انتهى . . .

بدأت الدول المجاورة تسترد الأجزاء التي كانت قد قدمتها جزءاً جزءاً . وصغرت دولة السلطان ، وصغرت . واستشاروا في أمر ما حدث ، واستفسروا عن نهايته . إذا لم يعد السلطان يستطيع استخدام الدبوس فما فائدته ؟ أسقطوه وأخذ مكانه مُسْقِطَهُ . أخذوا مكانه ، ولكن ماذا سيفعلون بالدبوس ؟

أحدهم قال :

ـ رمينا السلطان ، فلنرم دبوسه . .

لم يقتنع السامعون بهذا الكلام ، فقالوا :

ـ كيف نرمي هذا الدبوس المقدس الذي يحكي كل ذكرياتنا ، وماضينا الشهير ؟ إنه خصوصيتنا . كلما نظرنا إليه سنتأوه ، ونمتدح أنفسنا قائلين : « آه ، آه رحم الله تلك الأيام . . كان أجدادنا يُسمعون صوت الدبوس من كل مكان » .

راح السلطان ، وراحت السلطنة ، ولكن بقي دبوس السلطان . وأخذ من يعيش في تلك الدولة فكرة اخرى : أين سيضعون الدبوس ؟ بعضهم قال : « نضعه في المتحف » وبعضهم قال : « ننصبه في ساحة كبيرة » . فكروا بالأمر وقالوا :

ـ الأفضل أن نضع الدبوس في مكان يراه الجميع كل يوم ، ومن يرى هذا الدبوس التاريخي يتفاخر . .

علقوا الدبوس الضخم عند باب المدينة الكبيرة . ويقال إن الذين يعيشون هناك كانوا يدخلون ويخرجون يومياً من هذا الباب . ولكن لم ينته الأمر عند هذا الحد . فجأة سقط الدبوس فوق أحد المارة من تحته ، وسحق

الرجل . تعاونوا على رفع الدبوس ، وعلقوه في مكانه . بعد فترة أيضاً سقط الدبوس مرة أخرى فوق أحد المارة . ورفعوه مرة أخرى ولكي لا يقع مرة اخرى ربطوه بجنازير ثخينة . ولكن على الرغم مما فعلوه ، فما استطاعوا المحافظة على الدبوس في مكانه . كان الدبوس يقطع الجنازير ويسقط على رأس أحدهم . أزهق أرواحاً إلى حد صار يقال عن الذين سقطوا تحته : «ضحايا الدبوس» . لم ينجحوا بأي شكل من الأشكال بالتخلص من تقديم ضحايا الدبوس . بعد فترة فُهم السبب . لكثرة ما نزل على رأس هذا وذاك عبر هذه القرون تعود هذا الدبوس على هذا العمل جيداً . تظن أنه تحول إلى مخلوق حي . لا يستطيع الوقوف مكانه ، لابد أن ينزل على رأس أحدهم .

فكر الذين عبروا إلى مكان الذين أخذوا مكان ، وهم احتلوا مكان الذين جلسوا مكان السلطان القديم بإنهاء قضية تقديم القرابين للدبوس . لأن أعداد ضحايا الدبوس ازدادت إلى حد أن الناس في تلك الدولة صاروا يقولون : «نحن لانريد هذا الدبوس» . ولفت نظرهم أن هذه الأقوال تتزايد مع الزمن . كما أن التخلص من الدبوس لا يناسبهم . لأنهم إذا رموا الدبوس فلا يبقى لديهم ما يتأوهون له ويتفاخرون به . إنهم يستمدون كل قوتهم من خلال نظرهم إلى الدبوس وقولهم : «واخ ، كيف كنا نلوح بالدبوس على زمن آباء آباء آبائنا» . لو راح الدبوس لراحوا هم أيضاً كما راح السلاطين .

لو كان يُعرف على رأس من سيسقط الدبوس لهان الأمر . لكن الدبوس يثبت ، ويثبت ، فجأة يسقط على رأس أحد المضطرين للعبور من هناك . والجميع مضطرون للعبور من هناك . عندئذ فكروا ، وأمعنوا التفكير في الأمر ووصلوا إلى هذه النتيجة :

ـ سقوط الدبوس على رأس أحدهم لا بد وأن فيه حكمة . أيها المواطنون! هل تعرفون ما هي هذه الحكمة ؟ إن الدبوس الموروث عن آبائنا يسقط فوق المذنبين ويعفس رؤوسهم . إذا كان الدبوس قد عفس رأس

أحدهم فلا بد أن هذا الواحد مذنب .

صدق أغلب المواطنين هذا الكلام . ومنذ ذلك اليوم ، اذا سقط الدبوس ، وعفس رأس أحدهم يقولون :

ـ هذا هو المذنب . ونال عقابه! . .

حسنٌ ، جميلٌ ، وُجِد المذنب ونال عقابه ، ولكن ماهو ذنبه ؟ هذه المرة صار عليهم إيجاد ذنب للمذنب . لم يكن من الصعوبة كثيراً إيجاد الذنب . لأنه كيفما كان يوجد ذنب لكل من يسقط عليه الدبوس ويموت . ينظرون إلى قربان الدبوس ويقولون :

ـ آ آ آ . . انظروا إنه طويل جداً . . لهذا السبب عفسه الدبوس .

ينظرون إلي ضحية دبوس أخرى ويقولون :

ـ لم ينزل الدبوس على رأسه للا شيء . . إنه أسمر ، وهذا هو السبب .

كان ذنب بعض من سحقهم الدبوس السمنة ، وبعضهم النحول ، وبعضهم شقرتهم ، وبعضهم النظارة ، والبعض الآخر عدم تسريح شعرهم .

كان ذلك الدبوس يساعد على إيجاد المذنبين في تلك الدولة . يجد المذنب أولاً ، ثم يجعله يدفع حياته ثمن ذنبه . وفيما بعد يبحث عن ذنب مناسب .

راح زمان وجاء زمان . . بانت نهاية الحكاية لكم .

يقال إنه كان يوم احتفال كبير ، وتلقى الكلمات تحت الدبوس . فجأة سقط الدبوس ولكن أتعرفون ماذا جرى بعد هذا ؟ رفعوا الدبوس ، وعلقوه مكانه .

حكاية معاصرة

كان يا ما كان . في يوم كان ، وفي خمسة ما كان . . كانت الحاجات غير موجودة والأذيال كثيرة . كان في إحدى دول هذه الأرض شقة صغيرة . يسكن فيها رجل محدود دخله . ولأن الرجل لم يستطع دفع أجرة بيته رمى موظفو الحجز من البيت أغراضه وزوجته وأولاده . دَهِشَ الرجل عندما وجد نفسه فجأة وسط الشارع مع عائلته . فتح كلتا يديه وتوسل إلى ربه ليساعده . ثم حمل نفسه وخرج من مدينته وتجول في ضواحيها القريبة . وهناك رأى أراضي خاوية على مد بصره . قال لنفسه :

ـ لأعمل بيتاً من صفيح وأخشاب هنا أؤي فيه أولادي . .

كان قد بقي لديه عدة قروش ، وباع بعض أغراضه المهلهلة ، وبالنقود التي تجمعت بين يديه عمل البيت بغرفتين في أقرب أرض فارغة إلى المدينة ، وسكن مع عائلته . كل يوم كان يذهب ماشياً من هذا البيت إلى عمله . وما كان ينقطع عن الدعاء والحمد لربه على هذه المساعدة .

وفي يوم من الأيام طُرق بابُهُ في ساعة متأخرة من الليل . فتحه فرأى رجلاً غريباً قال له :

ـ طردوني من البيت لأنني لم أستطع دفع أجرته . إيجارات البيوت في المدينة غالية . سمعت أن لديك غرفتين . هل تؤجرني إحداهما بسعر رخيص ؟

أجَّرَ الرجل للغريب بسعر رخيص إحدى الغرفتين . وجمّع ما حصل عليه من أجرة وعمل اثنتين أخريين وأجرهما بسعر رخيص لآخرين . وكلما ازداد دخله من الإيجار كان يزيد من ذكر الله بدل المرة اثنتين .

بعد مدة لم يعد بيت الصفيح والخشب يتسع للرجل ، فقال لنفسه : «لأعمل بيتاً أكبر للعائلة» هذه المرة لم يعمل بيتاً من الصفيح والخشب ، بل بنى بيتاً بثلاث غرف في طابق واحد . وخرج من البيت الصفيحي الخشبي وانتقل إلى هذا ، وأجّرَ ذاك .

راح زمان وجاء زمان ، طلع فوق البيت الذي يسكنه طابق ثان . أجر الطابق السفلي وانتقل إلى العلوي . لم يكن يتوقف عن الدعاء للرب الذي حماه .

وبنقود الأجرة أنشأ إلى جانب بيته واحداً أكبر منه هذه المرة . وأجره ثم ترك عمله . ومن إنشاء البيوت وتأجيرها أمن عمله .

وفي أحد الأيام طلع له رجل وقال :

ـ هي ملكي هذه الأراضي التي تبني بيوتاً عليها ، وها هو سندها .

قال الرجل :

ـ أنا لست سيئاً ، ولا أريد أن أسكن فوق مال أحد . بعني هذه الأرض إذا أردت! ولان الأرض بعيدة عن المدينة ، وهي كلسية لا تصلح للزراعة ، باعها صاحبها بسعر بخس ، بعد مدة من الزمن قالت زوجة الرجل :

ـ ابن لنا بناية نسكن فيها!

بنى الرجل بناية بخمسة طوابق ، في كل منها خمس غرف . وأجرها . وصار المكان هناك يكبر من يوم إلى يوم ، ويتوسع ويتطور . صار حياً . وانتخبوا له مختاراً . عمل المختار وبذل جهداً . وتحمل صعاباً . وفي النهاية جلب إلى الحي ماءً . بعد هذا قدم السكان معروضاً ، طلبوا كهرباءً . وبعد زمن وصلت الكهرباء أيضاً .

صار الرجل لا يبني البيوت والبنايات عشوائياً ، بل يجعلها منسقة

ومنظمة وشق بينها طرقاً ، وأزقة ، وعمل دكاكين ، وفتح أسواقاً .

كل يوم يزداد الرجل غنى . لكنه لم يخرج إيمانه بربه من قلبه لحظة . ولا يتوانى عن ذكر الله كلما شهق نفساً .

صار الرجل مسناً ، ففكر قائلاً :

ـ صار لي قدم في الحياة وأخرى في الممات . ولا ينقصني شيء من المشتهيات ، وكثيرة لدي الليرات ، فلماذا لا أبني جامعاً وأزيد من الحسنات .

من ناحية النقود ما توانى في صرفها . حَرَجَ حرجاً منها . وفي أجمل أمكنة الحي بنى جامعاً . خلال ثلاث سنوات أنهاه . وما ترك شيئاً ينقصه . له صحنه ، ونبعه ، وحنفياته وغرفه . . صار جامعاً متلألئاً . وقال عنه العارفون في الأعمال الفنية والنصب : « إنه أثر ضخم » .

ومع الزمان توسعت شهرة المكان . وفي يوم من الأيام جاءت إلى الحي خمس سيارات ، لوحاتها رسميات دَهِشَ الرجال عندما نزلوا ورأوا الجامع ، فقالوا :

ـ يالله ما أروع هذا الجامع! . .

قال أحدهم :

ـ إن كان على الروعة فهو رائع ، ولكن يا للأسف على روعته ، إذ تخفيها البيوت والبنايات ، وسترها يخنقها . لتهدَمَ هذه الأبنية فوراً ، وليبرز الجامع وليظهر جماله حالاً . .

وفي الصباح التالي جاء الهدامون وآلات الهدم والشاحنات . وهدموا كافة البيوت المجاورة له والبنايات وأزيلت من حول الجامع الساترات . وبرز الجامع بكل مافيه من سمات .

هم نالوا مرادهم ، ولنقع نحن على الخفيسة .

بذرة التين

كان يا ما كان ، في قديم الزمان ، دولة «لها اسم ، وليس لها كسم» ، لهذه الدولة نظام حكم «له كسم وليس له اسم» . ويعيش في الدولة التي «لها اسم ، وليس لها كسم» أناس «لا موجودين ولا غائبين» في ظل حكم «له كسم وليس له اسم» .

في يوم من الأيام ، في الدولة التي «لها اسم وليس لها كسم» ، وفي ظل الحكم الذي «له كسم وليس له اسم» ، بدأ أحد الناس «اللاموجودين ، واللاغائبين» يتمتم : تم تم ، تم تم . لم يكن يُفهم مايقوله . مُطرق رأسه ويتمتم دون توقف تم تم ، تم تم .

ولأنه في الدولة «التي لها اسم وليس لها كسم» ، وفي ظل النظام الذي «له كسم وليس له اسم» يمنع منعاً باتاً كافة أنواع التمتمة المحلية والأفرنجية . قبضوا على المتمتم وطالعوه إلى قدام القاضي .

سأله القاضي :

ـ ماذا تعمل ؟

قال الرجل :

ـ أتمتم مع ردن كمي .

قال القاضي :

ـ كافة أنواع التمتمة ممنوعة ، إن كانت مع ردن كمك ، أو طربوش

رأسك . ليجتمع الناس في الساحة الكبرى ، وليُضرب هذا الرجل وسط الناس مائة عصا على مؤخرته .

ـ واحد . .

قالوا ، وضربوه بالهراوة .

ـ اثنان

قالوا ، وضربوه . مع استمرارهم بالضرب كان الرجل يتمتم تم تم ، تم تم .

لم يتمالك نفسه كبير الجلادين فقال :

ـ ما هذا يا مواطن ؟ ما سر هذا الأمر ؟ . . تأكل الهراوات ولا تتوقف عن التمتمة . ما سر هذا الأمر ؟

رفع المضروب بالهراوة رأسه ، وقال :

ـ ماذا أستطيع أن أفعل ؟ ، ما بيدي حيلة . .

سأله كبير الجلادين :

ـ حسنٌ . لماذا تتمتم ؟ ما التم تم ، تم تم التي تتمتمها ؟ قل لنفهم نحن أيضاً! قال الرجل :

ـ أتمتم قائلاً لنفسي : «ما اسمه ، ماسمه ؟ »

توقف كبير الجلادين ، وأسند ذقنه على الهراوة ، وأطرق مفكراً :

ـ نعم ، هذه هي الحقيقة ياموطن . والآن جرفني القلق أنا أيضاً . .

وقال لنفسه «ما اسمه ، ما اسمه ؟ » ، ثم رمى كبير الجلادين هراوته من يده وبدأ يتمتم :

ـ ما اسمه ، ما اسمه ؟

أحاط المتجمهرون في الساحة بكبير الجلادين ، وقالوا له :

ـ بماذا تتمتم يا كبير الجلادين ؟

ـ ما اسمه ، ما اسمه ؟

قال المتجمهرون هناك : «صحيح ياه» ، وصاروا يتمتمون :

ـ ما اسمه ، ما اسمه ؟

ثم بدأ عامة الناس يتمتمون : «ما اسمه ، ما اسمه ؟ »

جُمع هؤلاء جميعاً ، وجُلبوا إلى قدام القاضي .

سألهم القاضي :

ـ بماذا تتمتمون ؟

قالوا :

ـ ما اسمه ، ما اسمه ؟

جمع القاضي أطراف جبته ، ونط قائلاً :

ـ هذه هي الحقيقة . ما فكرت في هذا قبل الآن . ما اسمه ، ما اسمه ؟

تدافع الجميع نحو الشارع ، وبدأوا يتمتمون :

ـ ليسموه! ما اسمه ؟

ـ ليقولوا لنا اسمه! ما اسمه ؟

ـ مااسمه ، ما اسمه ؟

سأل السيد رأس الرؤوس القابض على النظام الذي : «له كسم وليس له اسم» في الدولة التي «لها اسم وليس لها كسم» :

ـ ما هذه التمتمة تم تم ، تم تم .

قالوا له :

ـ ما اسمه ، ما اسمه ؟

قال السيد رأس الرؤوس :

ـ التمتمة أمر سيء ، يوصل الإنسان إلى نهاية شنيعة . اقعطوا التمتمة! . .

ولكن المتمتمين قالوا :

ـ قل اسمه! سمَّه! عندها لن نتمتم . . وإلا سنتمتم . مااسمه ، ما اسمه ؟

رأى السيد رأس الرؤوس أن هذا وضع لا يحتمل ، وأن التمتمات لن

تنقطع . واحتار فيما يفعله .

ويحكى أنه كان بأمر السيد رأس الرؤوس خمسة جان . عندما يقع في مأزق يستدعي أحدهم ويستشيره . استدعى الجني الأول ، قال له :

ـ رحماك يا جني ، يا روحي الجني . الكل يتمتم تم تم ، تم تم . يقولون : « ماسمه ، ماسمه ؟ » دخيلك اقترح علي سبيلاً لقطع هذه التمتمات .

قال الجني :

ـ لا تقلق يا سيد رأس الرؤوس . كما تريد . نطلب منهم مالا يمكن فعله . ونقول لهم : « إذا عملتم هذا نقول لكم اسمه » .

سأله السيد رأس الرؤوس :

ـ ماهو هذا الذي لايمكن فعله ؟

ـ ليعملوا قصراً قبل فجرالغد . جدرانه فضية ، وسقفه وفرشه ذهبية .

فرح السيد رأس الرؤوس . جمع المتمتمين ، وقال لهم :

أنتم تسألون عن اسمه . حسنٌ ، إذا عملتم لي قبل فجر الغد قصراً جدرانه فضية وسقفه وفرشه ذهبية ، سأقول لكم اسمه .

إنه عمل لا يعمل لا في يوم ، ولا في عشر سنوات ، ولا في عشرين سنة . في الحقيقة توقفت التمتمات . ونام السيد رأس الرؤوس نوماً عميقاً في تلك الليلة . عندما استيقظ في الصباح نظر من النافذة ، فماذا رأى ؟ رفرفت أجفانه لما رآه . أمامه قصر . عندما تنزل أشعة الشمس عليه تتلامع جدرانه الفضية ، وسقفه الذهبي . فالناظر ترف له أجفانه وهو أجمل مما أراد بكثير .

عاد الجميع إلى التمتمة :

ـ سمه ، سمه!

ـ ما اسمه ، ما اسمه ؟

ـ قل اسمه ، ما اسمه ؟

استدعى السيد رأس الرؤوس الجني الثاني . قال له :

ـ رحماك يا جنيَّ ، يا روحي الجني . . . جدلي طريقا ، أودلني على أسلوب لقطع هذه التمتمات :

قال الجني الثاني :

ـ ما صار موقع القصر مناسباً . ليحملوه قبل فجر الغد من الشرق إلى الغرب . عندها تقولون لهم عن اسمه . إنه عمل يستحيل عمله . . ليس حتى الغد بل ولا حتى بعد خمس سنوات . .

قال السيد رأس الرؤوس للمتمتمين ، ما قاله الجني الثاني . هدأت التمتمات . ونام السيد رأس الرؤوس تلك الليلة دن انقطاع . عندما استيقظ في الصباح ، نظر من النافذة ، وإذ بمكان القصر الذي أنشيء البارحة فارغ يعج فيه الغبار . ونظر من النافذة المقابلة لتلك ، فماذا رأى ؟ . . أما انتقل القصر الفضي والذهبي الذي كان البارحة في ذاك الطرف إلى هذا الطرف ؟! . . وعاد الناس إلى التمتمة : «ما اسمه ، ما اسمه ؟ ضع لهذا اسمه! »

دهش السيد رأس الرؤوس واستدعى الجني الثالث :

ـ رحماك يا جنيَّ ، يا روحي الجني . اقطع لي هذه التمتمة!

قال الجني الثالث :

ـ بسيطة . اطلبوا منهم ما هو مستحيل ، ليعملوا حديقة قبل صباح الغد . ولتكن الحديقة مترامية أطرافها بحيث لا تُرى . بِرْكَتُها من ذهب ، أسماكها من فضة . ويجري العسل في وديانها ، وليتدفق الدبس من ينابيعها . ولتحمل كافة أنواع الثمار أشجارها ، ولتجمع كافة الأزهار المعروفة على الأرض فيها .

قال السيد رأس الرؤوس هذا للمتمتمين . وفي الصباح التالي تأسست حديقة ُأفضل مما طلب السيد رأس الرؤوس . حديقة لا مثيل لها . مرة أخرى عاد الناس الى التمتمة :

ـ ما اسمه ، ما اسمه ؟

استدعى السيد رأس الرؤوس الجني الرابع ، وهذا أيضاً قال :

ـ قبل الغد ، لتكن الفصول الأربعة موجودة في الحديقة في آن واحد . لا يمكن لهم عمل هذا .

نظروا في الصباح التالي ، وإذ بالصيف في أحد أطراف الحديقة ، والخريف في طرف ، والربيع في جهة ، والشتاء مثلج في جهة أخرى ، الورود متفتحة ، والبلابل مغردة ، والذئاب على الثلج متمرغة . في هذه الجهة أشجار الكرز مزهرة ، والسفرجلات ناضجة ، والتينات معسَّلة في الجهة الأخرى . تضحك السفرجلات ، وتبكي الرمانات ، والدم يقطر من القرنفلات . والجليد يربط الأغصان اليابسات . في هذا الطرف تقول : «أوف ، شوب» وفي ذاك تقول : «أح ، جمدت» .

بدأ الناس يتمتمون :

ـ ما اسمه ، ما اسمه ؟

نادى رأس الرؤوس الجني الخامس ، وقال له :

ـ أنت أملي الأخير!

قال الجني الخامس :

ـ بسيطة . . ليجلبوا قبل صباح الغد أربعين فتاة من أجمل جميلات العالم . بشرتهن لم تر الشمس . لا عيب فيهن ولا نقص . ولتتفتح الورود حيث يطأن ، وليجر الدم أينما مررن . ولينعقد لسان ، ويتوقف قلب من ينظر إليهن .

طلب السيد رأس الرؤوس هذا من المتمتمين . قال بينه وبين نفسه : «لا يستطيعون عمل هذا مهما كان»

استيقظ في الصباح التالي ، فماذا رأى ؟ . . على يمينه عشر ملكات جمال ، وعلى يساره مثلهن ، وأمامه عشرة منهن ، وخلفه أجمل منهن . وكقطع القمر كأنهن . . .

بدأ الناس بالتمتمة مجدداً :

ـ ما اسمه ، ما اسمه ؟

اجتمع لديه الشياطين ، وقالوا :

ـ نحن عجزنا .

لم يبق ما يمكن طلبه . وكلما استمرت التمتمات تنسد شهية رأس الرؤوس للطعام والشراب . وما عاد دخل النوم إلى عينيه ، واصفرّ ، وذبل ، وأصبح مثل خيط الإبرة .

في أحد الأيام بينما كان رأس الرؤوس يطرق مفكراً ، جاءه عالمه الخاص ، وقال له :

ـ يا سيد رأس الرؤوس! إني أراك مهموماً . ما هو همك ؟ لماذا تفكرون بهذا الشكل ؟

قال السيد رأس الرؤوس :

ـ اذهب إلى شغلك! ألا تسمع هذه التمتمة ؟

قال العالم :

ـ أنا أوقف هذه التمتمه!

ـ خمسة جان ما استطاعوا إيقافها . كيف ستوقفها أنت ؟ . . اغربْ عن وجهي!

قال العالم :

ـ إن جانك الخمسة أخذوا مني دروساً كل يوم خمس ساعات . يا سيدي رأس الرؤوس جرِّبوا ما سأقوله أنا . .

قال رأس الرؤوس :

ـ احك! .

قال العالم :

ـ اطلبوا اليهم جمع التين عن أشجاره ، وإخراج بذوره . وأعطوا كل متمتم بذرة . إذا استطاع المتمتمون إملاء بذور التين عندها تخبرونهم عما

يسألون .

قال رأس الرؤوس :

ـ يالما فعلوا! ألن يستطيعوا ملء بذرة تين ؟! . . ولكن لنجرب . .

أعطو بذرة تين لكل متمتم : «ما اسمه ، ما اسمه ؟» يعيش في ظل حكم «له كسم وليس له اسم» في الدولة التي «لها اسم ، وليس لها كسم» وقالوا له :

ـ إملأ بذرة التين هذه ، ونقول لك اسمه . .

قال المتمتمون بفرح :

ـ ما أسهل هذا ، الآن نملأها ونأتي . .

ـ ولكن ستملؤونها تماماً .

ـ أمركم .

لم يكن لدى السيد رأس الرؤوس أي أمل ، ولكن التمتمة انقطعت . يوم ، يومان ، خمسة أيام . سنة ، سنتان ، خمس سنوات . . ليس ثمة تمتمة .

بدأوا بملء بذور التين . ملأوها ، وحشوها ، وأدخلوا ما استطاعوا فيها ، ولكن ولا بأي شكل لم يمتلىء فراغها . أدخلوا فيها أعراس الملوك والأمراء وعلاقاتهم السرية فما ملؤوها . بالقيل والقال عبأوها فما امتلأت .

بقي القليل لتمتلىء ، ياالله كادت تمتلىء . ولانهماكهم بملئها لم يجد أحد منهم فرصة للتمتمة : «ما اسمه ، ما اسمه» .

مر على هذا الأمر أكثر من عشر سنوات . خرج السيد رأس الرؤوس بجولة ، وقال :

ـ لنر ماذا يفعلون ، وبما هم منشغلون ؟

كانوا لم يملؤوا واحداً بالألف من بذور التين بين أيدهم . في النهاية دخلوا بأنفسهم في داخلها فلم تمتلىء .

لم تمتلىء بذور التين ، ولكن انقطعت تمتمة المواطنين

« اللاموجودين ، واللاغائبين » العائشين في ظل نظام « له كسم وليس له اسم » في الدولة التي « لها اسم وليس لها كسم » .

ولم يبق شخص واحد يسأل : « ما اسمه ؟ »

هم نالوا مرادهم ، ولندخل نحن إلى بذرة تينهم .

طليعة تحت الذيل

كان يا ما كان في قديم الزمان ، سرب من الأسماك يعيش في حفرة صخرية في قعر البحر ليس في قديم الزمان فقط ، بل في كل زمان تعيش أسراب من الأسماك في حُفرٍ صخريةٍ في قعر البحار . ولكن السمكة التي نحكي عنها حكاياتنا ، لا تشبه أسماك كل زمان . كانت بالشكل مثل بقية الأسماك ، ولكنها بالعادات تختلف عنها كثيراً . كانت سمكة جريئة ، شهمة ، كريمة . دمها يغلي فلا تستطيع الوقوف بمكان . تلعب في قاع البحر أينما شاءت . كان لها عادة تأتيها على شكل نوبة . والأهم من هذا فهي تشعر بضيق المكان الذي تعيش فيه . كانت تريد الذهاب إلى الأمام ، وإلى البعيد ، لتتعرف على ما يحدث هناك .

وكان ثمة سمكة أخرى في ذلك السرب الذي يعيش في حفرة قاع البحر الكبيرة . وكانت هذه عكس تلك ، كسولة ، مطيعة ، هادئة . كانت لا ترغب بتحريك نفسها . تحسب حساباً من أجل زحزحة ذيلها ، وتتعب من حركة زعانفها . ولأنها كسولة جداً ، كانت لا تترك أسفل ذيل تلك السمكة الشهمة الجريئة . لأن السمكة الجريئة عندما تقذف قاذوراتها من مؤخرتها ، كانت السمكة الكسولة تبتلعها ظناً منها أنها طعام . وهكذا وجدت طريقة سهلة لتتغذى . فصارت قاذورات السمكة الأمامية مصدر غذاء سمكة تحت الذيل .

وغير هذا ، لا تواجه سمكات تحت الذيل أية صعوبة في عملية اختيار الطريق في البحر . كانت السمكة الأمامية هي التي تواجه تيار الماء وتشق الطريق . بينما سمكة تحت الذيل تمر من المكان الذي تفتحه السمكة التي تشق الماء .

إذا اعترضهما عارض فالسمكة الأمامية تتجاوز العارض ، وتزيله ، وتعيش سمكة تحت الذيل دون مشقة . إذا حدث خطر ما ، فالسمكة التي ستقاتل هي سمكة المقدمة . إذا أراد سرب السمك أن يرتاح في مكان ما ، تتهيج السمكة الجريئة القوية الكريمة ، وتهبط من الأعلى إلى الأسفل ، وتصعد ثم تعود تغوص من أسفل السرب ثم من فوقه ، فتماو ج البحر تخربط المكان ، وتبث الحيوية في البقية .

كانت سمكة جريئة قوية كريمة ، عيناها متلامعتان ، حراشفها برّاقه ، زعانفها رجّافة .

في أحد الأيام ، تعلقت بفكرة مفادها :

ـ أنا تضايقت من هذه الحفرة الصخرية ، سأذهب بعيداً وأعرف ما يجري ، وما يدور من حولي .

قالت السمكات الأخريات :

ـ الأماكن البعيدة مخيفة .

ـ السمكة التي تخرج عن السرب تبتلعها السمكات الكبيرة .

ـ لاتأتينا بجديد على ما تعودنا عليه .

ـ هذا مكان مسقط رأسنا ، ورأس أجدادنا . هنا فقسنا ، وهنا كبرنا .

ولكن مهما قالوا فلم يقنعوا هذه السمكة الجريئة والقوية الكريمة ، والمشاكسة . إذ أنها تعلقت بقول :

ـ لا بد أن أذهب إلى الأماكن البعيدة .

خرجت من الحفرة الصخرية . هي خرجت ، ولكن ماذا جرى لسمكة تحت الذيل ؟ كل هذا الزمان لم تنفصل عن تحت ذيلها . إذا ذهبت تلك

فماذا ستفعل هذه وحدها في هذه الحفرة الصخرية ؟ فلن تجد طعاماً تتغذى ، ولن ترتاح ، وستسند رأسها إلى هذه الحفرة . . فلا تستطيع شق طريقها لنفسها ، ولا تستطيع إشباع بطنها . شاءت أم أبت هي مضطرة للتعلق بذيل السمكة الجريئة القوية ، والذهاب إلى الأماكن البعيدة .

في النهاية خرجتا ، وجابتا أماكن البحر العميقة والرقيقة ، الرملية والطحلبية ، الصخرية الساحلية ، ياالله ، ما أجمل هذه المناطق البعيدة ، ياالجمالها . . لماذا بقيت الأسماك مغلقة على نفسها حتى الآن في تلك الحفرة الصخرية السوداء ؟ لماذا ؟

كانتا تتنزهان ، ولكن لم تكن نزهتهما سهلة . أحياناً ، كانت تنشب بعض المعارك الدامية بين سمكة المقدمة ، وبعض الأسماك الحادة الأسنان ، والإبرية الزعانف . كانت تتعرض لهجمات السمكات الكبيرة . حدث عدة مرات أن تصارعت مع عدة سمكات في آن واحد . وإذا خرجت أمامها أسماك كبيرة جداً ، كانت تُتَوَهُها وتتخلص منها . كانت تصاب بجروح أو رضوض لكنها في النهاية تتخلص . وبينما كانت هي تعمل وتكدح ، وتجابه ، وتقاتل ، كانت سمكة تحت الذيل ، ولشدة خوفها تختبىء أكثر تحت الذيل وتحتمي به . ولأنها تتغذى دون تعب أو عمل ، فانتفخت وسمنت . صارت سمكة ضخمة . أما السمكة الأمامية ولأنها كانت مضطرة لإزالة العوائق من أمامها من جهة ، ولإيجاد الغذاء من جهة ، وللمحاربة من جهة أخرى فلم تكن تسمن أبداً . ولكن تزداد قوتها ، ويتصلب حسكها .

بعد أن تنزهت السمكة الأمامية في بيئة واسعة ، وعرفت جيداً أحجارها وحصاها وطحلبها ، عادت إلى مكانها ، إلى الحفرة الصخرية التي تسكنها سمكات قطيعها ، وقالت لهن :

ـ أنا اكتشفت أمكنة جديدة ، تعالين لا تخفن ، وعلى الطريق سأدلكن .

أما سمكة تحت الذيل التي سمنت خمسة أضعاف على ما كانت عليه

لتغذيها بالقاذورات ، أرادت أن تبتدع لنفسها مصدر فخر ، فكانت تبربر دون توقف :

ـ آه من تلك الأمكنة التي وجدناها ، آه من تلك الأمكنة . .

خرج سرب السمك من الحفرة الصخرية ، وتبع السمكة الجريئة القوية نحو الأماكن المنفتحة . وفرحت السمكات وقلن : «يا الله ، ما أحلى هذه الأماكن ؟» . وأطلقت اسم «طليعية» على السمكة التي وجدت هذه الفرجة .

وبعد مدة من الزمان صارت الأماكن التي وجدتها الطليعية ضيقة عليها . فتعلقت بفكرة :

ـ أنا صرت متضايقة من هذا المكان ، سأذهب إلى الأماكن البعيدة ، وأرى مافيها . . .

وإذا كانت سمكات السرب قد قالت لها : «قومي ، حطي ، لاتعملي ، تكفينا هذه الأمكنة التي اعتدنا عليها وتزيد» ، ولكن لم تقنعها .

حملت نفسها السمكة الطليعية ، وانفتحت على البحار . وكانت سمكة تحت الذيل مضطرة إلى اللحاق بها لتتغذى دون مقابل بقاذوراتها .

غاصت السمكة الطليعية إلى أعماق أكبر في البحر . تنزهت وتجولت . لم تكن هذه النزهة سهلة . لفها أخطبوط ، فتخلصت من ذراعه . سقطت في الشباك فثقبتها وهربت . كادت أن تقع في الصنارة ، لكنها خطفت الطعم وتخلصت من الإبرة .

بعد أن تعلمت كل هذا عادت إلى صديقاتها . وقالت :

ـ ياالله! تعالين وجدتُ أمكنة أحلى ، سأدلكن عليها .

كانت سمكة تحت الذيل ، قد سمنت ، وازداد وزنها . صارت سمكة ضخمة ، ضخمة جداً . كانت تغطي ببربرتها على السمكة الطليعية :

ـ آه من تلك الأمكنة التي وجدناها ، ما أحلاها . . آه من تلك الأمكنة . . في الحقيقة أنا وجدتُها وهي ساعدتني . .

انطلقت سمكات السرب إلى مكان أوسع . فرحن كثيراً . لكن السمكة الطليعية أصرت مرة أخرى على رأيها :

ـ سأذهب إلى أمكنة أبعد وأبعد .

وفعلت ما قالت . ولم تغادر سمكة تحت الذيل مكانها . وبأكل القاذورات صارت سمكة ضخمة ، ضخمة جداً ، ضخمة جداً جداً .

عادتا إلى صديقاتهما في السرب . هذه المرة بدأت سمكة تحت الذيل بقول :

ـ لولا كنت وراءها ، من الصعب عليها اكتشاف هذه الأمكنة . أنا كنت من ورائها فاتكأت علي . وإلا فما الذي تستطيع عمله وحدها .

وهكذا استمر هذا العمل . السمكة الطليعية تذهب إلى الأماكن الأبعد . تتعرف على تلك المناطق ، وتأخذ صديقاتها . وسمكة تحت الذيل تسمن على أكل قاذوراتها . ورويداً رويداً بدأت تغيّر أسلوب كلامها :

ـ هي ما عملت شيئاً . أنا من أقام وأقعد ، وأسس وخرب ، ودل على الطريق وفتحه . .

ـ لو كنت مكانها لما ذهبت من هناك . راحت خطأً . . أنا لا أوافقها في رأيها .

ـ هذه هي الحقيقة . .

ـ إيه ، وهل هي عملت شيئاً . . لن يبقى لها اسم في تاريخ السمك . لن يذكرها أحد .

ـ غداً ستُنسى ، ولن يبقى لها ذكر . .

ـ أنا التي اكتشفتُ كل ما اكتُشفَ .

بينما كانت سمكة تحت الذيل تقول هذا ، كانت السمكة الجريئة القوية الكريمة تذهب إلى أماكن أبعد ، وتكتشف أماكن أجد ، وتأخذ صديقاتها إلى هناك ، وتوسع آفاقها من جهة ، وآفاق صديقاتها من جهة أخرى .

في يوم من الأيام خرجت السمكة الطليعية لاكتشاف أمكنة أكثر جدة . فكرت سمكة تحت الذيل قائلة : « إذا ابتلعتها سيكون خيراً » كانت تستطيع ابتلاعها . نتيجة أكل القاذورات كبرت ، وتضخمت ، وصار ليس من الصعب ابتلاعها . صارت أمامها مثل نقطة السمكة التي كانت تحتمي تحت ظلها فيما مضى . إذا أكَلَتْها ، وبَلَعَتْها ، سيدخل في تاريخ الأسماك اسمها . وبعد هذا تستطيع تشويه سمعتها ، والاستخفاف بها ، وعدم اعتبارها . .

وانطلاقاً من هذه الفكرة شرقت شرقة جرت السمكة الأمامية إلى جوفها . ثم بقيت وحيدة في أعماق البحار . وفهمت الخطورة التي أحاقت بها بعد أن بقيت وحدها . لم تكن تعرف من أين تذهب وكيف . لا يوجد من يدلها على الطريق . كانت تتعثر بالقواقع ، وتعصى بين الطحالب . كما أنها لا تعرف المحاربة ، ولا حول لها ولا قوة . والأسوأ من كل هذا ، أنها جاعت . لم يكن أمامها سمكة تقذف قاذوراتها . ولشدة جوعها ذابت . وذابت ، وخمدت مثل بالون غرز فيه إبرة ، ثم ماتت .

مع هذا دخل اسمها تاريخ الأسماك : « طليعة تحت الذيل »

وكان اسم الأخرى في تاريخ الأسماك : « طليعة »

كانت سمكة تحت الذيل مدينة ببقاء اسمها ، وعيش شهرتها « للطليعية » ففي البداية تذكر « الطليعية » ، ثم يُقال : « كان يوجد تحت ذيل الطليعية ، سمكة طليعية تحت الذيل » .

« في العلم والفن والسياسة ، وأينما كان ، وجود المخلوقات التي تسير في مياه أسفل الذيل مرتبط بوجود الطليعة » .

صراع الباذنجان

في عام ٢٨٢٨ تحدث الناطق باسم حزب المعارضة لدولة فارتفيكا ، إحدى دول جنوب قارة ضالاشيا على النحو التالي :

أيها المواطنون المحترمون! ياأبناء بلدي الأعزاء! إن قضية بلدنا المركزية اليوم كما بيّنا في برنامج الحزب بشكل واضح ، هي قضية محشي الباذنجان . إن ارتقاءنا إلى سوية الأمم المتحضرة مرهون بتوفر مقدار جمّ من محشي الباذنجان على مائدة كل مواطن . القضية الرئيسية هي قضية محشي الباذنجان . إذا حُلّت قضية محشي الباذنجان سنرى أن بلدنا يحقق كشوفات هائلة ، بسرعة إعجازية . إذا نظرنا إلى الدول المتقدمة والعظمى والمتحضرة لا نجد شعب أي منها يعاني من أزمة محشي الباذنجان . إن حزبنا يتناول بجدية قضية محشي الباذنجان هذه التي حلها الآخرون منذ زمن طويل . وليعلم الحزب الحاكم أن حزبنا لن يبخل بأية تضحيات في هذا السبيل .

أيها المواطنون المحترمون! إن حزبنا لا يفكر بطريقة للوصول إلى الحكم سوى طريقة الوصول القانونية بواسطة أصواتكم الانتخابية القيّمة . أوجّهُ السؤال إلى المائة والثمانية عشر ألفاً ، والأربعمائة والثلاثة والتسعين مواطناً الذين يملؤون الساحة الآن : هل تريدون محشي الباذنجان ؟

(أصوات : «نريد») . بالتأكيد تريدون ، وستريدون ، وعليكم أن تريدوا . لأن هذا حقكم . لكن التاريخ أثبت أن محشي الباذنجان لا يعطى بل يؤخذ . ومن المؤكد أننا في يوم ما سنأخذ من محشي الباذنجان حقنا . ولنسمع السلطة صوتنا من هذه الساحة مرة أخرى : هل تريدون محشي الباذنجان ؟ (أصوات : «نريد») . أيها المواطنون كونوا على ثقة أن صحناً من محشي الباذنجان لكل مواطن قليل . إنني ومن هذه المنصة أقسم بنظامنا الداخلي أن حزبنا سيوزع على كل مواطن قِدْراً من محشي الباذنجان عندما يصل إلى الحكم . ولن يجعل أي مواطن يشعر بأزمة محشي الباذنجان . عندما سنصل إلى السلطة إذا رأيتم أننا وفينا بوعودنا ستدهشون مثلما سندهش نحن تماماً . ولكن في يوم ما ، من المؤكد أن محشي الباذنجان سيطبخ في هذا البلد . . أيها الشعب! لعل هذا سيكون غداً ، أو بعد غد ، أو بعد أسبوع ، أو بعد سنة ، أو قبل مرور سنة . . ولكن أيها المواطنون سنسير في طريقنا مهما كانت التضحيات ، ودون أن يتزعزع إيماننا ، حتى نحل قضية محشي الباذنجان . (تصفيق حاد) .

في عام ٢٨٢٩ تحدث الناطق باسم الحزب الحاكم في فرتفيكا على النحو التالي :

أيها المواطنون المحترمون! يا أبناء البلد الأعزاء جداً! إن معارضينا يبتدعون قضية محشي الباذنجان من لا شيء ، وبهذا يريدون تخريب الأمن في بلادنا . مع أنكم تعرفون جيداً أن شعبنا لم يرتق بعد إلى سوية إمكانية هضم محشي الباذنجان . إن هدف المعارضة واضح تماماً . إنها تريد تخريب معدات الشعب بواسطة إطعامه محشي الباذنجان ، لكي ينتهزوا فرصة تلوي الشعب من آلام بطنه ويصلوا إلى السلطة نتيجة الفوضى التي ستحدثها آلام البطون . إن كافة جهودنا تنصب الآن في سبيل إعداد هذا الشعب للارتقاء به إلى منزلة استطاعته هضم أفضل أنواع محشي الباذنجان التي تليق به . إننا نبذل الجهود في هذا السبيل . ولم يكن مقعد الحكم في

أي وقت توقنا . عندما سيصل الشعب إلى منزلة استطاعته هضم محشي الباذنجان ، عندها من أجل استمرارنا بالجلوس على مقعد الحكم سنعدُ للشعب محشي الباذنجان بالتأكيد . إذا أكلتم الآن محشي الباذنجان فكيف ستكون نهايتكم ؟ إني أسألكم ؟ (أصوات : «سيئة») .

أيها المواطنون المحترمون! إن محشي الباذنجان سيليّط في معداتكم ، ولن تستطيعوا هضمه . محشي الباذنجان ثقيل لا تستطيعون تحمله . إذا أكلتموه ستصيبكم نوبات الألم . نحن لا نريد لأي مواطن أن يصاب بآلام وجع البطن . لأن آلامنا هي آلام المواطن .

في عام ٢٨٣٠ تحدث الناطق باسم حزب المعارضة الرئيسي لدولة فارتفيكا على النحو التالي :

أيها المواطنون المحترمون! إن الحزب الحاكم لا يريد معرفة ، أو رؤية الدرجة الكبيرة من الوعي التي وصل إليها شعبنا . فيدعي أن الشعب لم يرتق بعد إلى مستوى إمكانية هضم محشي الباذنجان ، وهكذا يريد إخفاء حقيقة واضحة كالشمس . إنهم يشوهون الحقائق . لا يمكن إخفاء الشمس! يدّعون أنكم لا تستطيعون هضم محشي الباذنجان . . ها ها ها . . ما هذا البرهان المضحك! عن إذنكم سأشرب كأساً من الماء (أصوات : «إذنكم معكم») . أشكركم (أصوات : «هنيئاً») .

أيها المواطنون! (أصوات : «نعم يا سيدي») إننا لا نسمح لأحد أن يتعدى على الباذنجان الوطني المنتج من هذه الأرض المباركة . أيها المواطنون ، القرار قراركم . أرجوكم أجيبوني : ألا تستطيعون هضم محشي الباذنجان ؟ (أصوات : «نستطيع») بالتأكيد إنكم تستطيعون . . ولا شبهة في هذا . . إنكم لا تستطيعون هضم محشي الباذنجان فحسب ، بل تستطيعون هضم محشي الكوسا ، ومحشي البندورة ، ومحشي الفلفل ، ومحشي الملفوف ، ومحشي ورق العنب بنوعيه : باللحم وبزيت الزيتون ،

ومحشي السمك ، ومحشي القواقع البحرية الطازجة أيضاً . ألا تستطيعون هضمها يامواطنين ؟ (أصوات : « نهضمها إذا وجدناها ») وأية محاشي بُلِّعتم حتى اليوم! ولله الشكر أنكم هضمتموها جميعها . أي محشي بُلّعَ لكم وليّط على معداتكم ؟ من منكم آلمه بطنه نتيجة أكله محشي الباذنجان ؟ من منكم أصيب بنوبات ألم ؟

إذا كان الحزب الحاكم جاداً في قضية إيصال المواطنين إلى منزلة تمكينهم من هضم محشي الباذنجان ، فما الذي قدمه في هذا السبيل ؟ أين محشي الباذنجان ؟ أين حقول الباذنجان ؟ عليهم أن يجيبونا على هذه الأسئلة . هل يمكن عمل محشي الباذنجان دون باذنجان ؟ لا يوجد بين أيدينا محشي باذنجان ، ويقولون : إن الشعب لا يستطيع هضمه . يا سيد هل عملت محشي الباذنجان وقال لك الشعب : لا أستطيع هضمه ؟ هل قال الشعب يليّط على معدتي ؟

كيف يستطيع الشعب الوصول إلى منزلة استطاعته هضم محشي الباذنجان دون وجود الباذنجان ودون وجود محشي الباذنجان . أيها المواطنون المحترمون! نحن لا نخوض صراعاً على الكرسي . صراعنا صراع الباذنجان ، ومحشي الباذنجان . ليس صراعاً بين الأنا والأنت . بل هو صراع المحشي . .

في عام ٢٨٣١ تحدث الناطق باسم الحزب الحاكم في فارتفيكا على النحو التالي :

أيها المواطنون المحترمون! يتهمنا السيد الناطق باسم حزب المعارضة ، وبعبارات لا تستند إلى أصل أو دليل ، نعم يتهمنا بأننا لانزرع الباذنجان ، ولا نعمل محشي الباذنجان . هل أقول لكم شيئاً ؟ (أصوات : « قل ») حسنٌ ، ماذا كنا نقول ؟ ها . . سيفهم من هذا فوراً أن هذه الكلمات بعيدة جداً عن الحقائق . من الذي أدخل لأول مرة إلى البلد محشي الباذنجان ؟ (أصوات : « أنتم أدخلتموه ») . نعم نحن أدخلناه . هل يستطيع

معارضونا تحريف وإنكار الحقائق التاريخية . إذا كانت الأمور قد وصلت إلى هذه النقطة فياللأسف ، يالغاية الأسف . . ألسنا نحن أول من جلب بذار الباذنجان إلى البلد ، ونحن أول من وجّه إلى زرعه ، ورعايته ، وتنميته ؟ عندما تسلمنا الحكم هل كان ثمة باذنجانة واحدة في البلد ؟ قولوا الحق : هل تربيتم في بيوت آبائكم على أكل محشي الباذنجان لتطالبوا به ؟

عندما تسلمنا الحكم ، ماذا كان يوجد في حقول البلد سوى بعض سلال الباذنجان الفارغة والمقلوبة والمنثورة هنا وهناك ، إضافة إلى بعض الباذنجانات المبذّرة ؟ إن ما تسلمناه هو هذه الباذنجانات المبذِّرة .

إن الذين لا يفكرون بحساسية الوضع الذي نحن فيه ، والذين لايعرفون الوضع الحساس اللاعادي الذي يعيشه العالم ، لا يتكلمون إلا بهذه السوية المتوسطة .

أيهاالمواطنون! اعلموا أن أعداءنا قد وضعوا أعينهم على باذنجاننا . ونحن إزاء هذاالوضع الحساس لا نجد من الصحيح إنتاج مزيد من الباذنجان لشد انتباه ، وحسد الأعداء . (أصوات : «صحيح للغاية») . علينا اليوم إزاء هذه الظروف الحساسة جداً ، والوضع الدقيق للغاية في العالم ، أن نتكاتف أكثر من أي وقت مضى ، ونترابط بكل معنى الكلمة ، وإنه علينا ألا نذكر الباذنجان و(الماذنجان) والمحشي ، وغير المحشي . قضية محشي الباذنجان تُحل تدريجياً وببطء . قبل كل شيء علينا أن نوصل معدات الشعب إلى منزلة تمكنها من هضم محشي الباذنجان ، بعد هذا ، من المؤكد أننا سنحضر محشي الباذنجان ونتنجه . أيها المواطنون الأعزاء! في وقت كهذا حساس إلى درجة غير عادية يتوجب علينا فيه أكثر من أي وقت مضى الترابط فيما بيننا . هل من الصحيح خلق قضية من لا شيء بطرح أقوال محشي الباذنجان وما محشي الباذنجان ، وتقسيم المواطنين ، وابتداع فصل باذنجاني بين أفراد الشعب ؟ اليوم ولله الحمد ، لا توجد قضية محشي باذنجان في البلد . كانت ثمة قضية أكثر أهمية ، وأكثر أولوية ، ألا وهي

قضية نبات الفاصولياء . نحن معتكفون وبالغ الأهمية على قضية نباتات الفاصولياء . لقد وضعنا يدنا على هذه القضية الهامة جداً . إنهم يقولون : باذنجان ، باذنجان . أرجو أن تقولوا ، كم هو مضحك طرح مطلب محشي الباذنجان في بلد لا يفكر بنباتات الفاصولياء التي تعتبر من الحاجات الضرورية لكل مواطن . ها ها ها . . نحن لا نعمل في أمور كمالية مثل محشي الباذنجان ، بل نحن نعمل من أجل تأمين الحاجيات الضرورية جداً للشعب مثل نباتات الفاصولياء .

إنهم يقولون : باذنجان ، باذنجان . لقد علّقوا على ذكر محشي الباذنجان . ثم علينا أن نفهم إلى أين تمتد جذور الباذنجان الذي يريدون إدخاله الى البلد ؟ هم هم م م . . ليضعوا هذا في عقولهم ، لن يستطيعوا في أي وقت مضى إدخال باذنجان تمتد جذوره إلى الخارج . إن باذنجاننا يكفينا ويزيد . وما يزيد نصدره عند الضرورة . . سترون أنه عندما يصل شعبنا إلى سوية إمكانية هضم محشي الباذنجان ، سنحول كل ما حولنا إلى حقول باذنجان ، وسيصعب المرور من الجبال والوديان والسهول والهضاب لكثرة الباذنجان . ولكن لكل شيء وقته أيها المواطنون ، أليس كذلك ؟ (أصوات : « صحيح ») .

في عام ٢٨٣٢ تحدث الناطق باسم حزب المعارضة الرئيسي لدولة فارتفيكا ، على النحو التالي :

أيها المواطنون المحترمون! أنا لا أملك منديلاً سوى هذا الذي ترونه ، وكما ترونه فهو منديل بال . فوق هذا أنا مريض ، أبقاكم الله بعافية . ولكن كما ترون ليس لدي إلا منديل بال واحد . ولا يسع إلا باذنجانة واحدة ، أو لا يتسع لها . لو وصلنا إلى الحكم في يوم ما فلن تجدوا في جيوبي ، إذا بحثتُم فيها سوى منديل واحد ممزق . أيها المواطنون المحترمون ، أريد أن أوضح لكم أننا إذا كنا نريد محشي الباذنجان ، فإننا لا نريده لأنفسنا ، إننا

نطالب به من أجل الشعب .

أيها المواطنون المحترمون! لماذا نشتري هذه الباذنجانة التي ترونها بخمسة قروش ؟ إذا كانت الباذنجانة الواحدة بخمسة قروش ، كم سيكلف قِدْر محشي الباذنجان ؟ يقول المسؤولون في الحكم : « يستطيع من يريد أكل ما يشاء من محشي الباذنجان » . ويقولون : « ثمة حرية أكل محشي الباذنجان » . إذا كانت الباذنجانة بخمسة قروش فلا أحد يستطيع أكل محشي الباذنجان ؟ قبل كل شيء لنتفق مبدئياً : بماذا تفيد حرية المحشي ، إذا كان الإنسان لا يستطيع أكل محشي الباذنجان ؟ نحن نريد أن يمتلك كل إنسان حقل باذنجان ، ويملأ قدوره بمحشي الباذنجان .

لماذا لا نأكل هذه الباذنجانة التي ترونها بسعر رخيص ؟ أيها المواطنون الأعزاء ، نحن عندما سنصل إلى السلطة سننتج باذنجاناً يسد حاجة الجميع . وسنحشو منه كميات كبيرة . لن يبقى موضع شبر فارغ . سيتحول كل مكان لم تطأه قدم إنسان ، أو لمسته بلطة إلى غابة من الباذنجان . إذا كان الحزب الحاكم لا يصدقنا فليؤجرنا حقول باذنجانه مدة شهر ، ولنر النتيجة المباركة .

في عام ٢٨٣٤ . . جرت انتخابات في فرتفيكا إحدى دول جنوب قارة ضالاشيا . سقط الحزب الحاكم ، ووصل إلى الحكم حزب المعارضة الرئيسي . وفي عام ٢٨٣٥ تحدث الناطق باسم حزب المعارضة الرئيسي قائلاً :

أيها المواطنون المحترمون! إن الحزب الذي نهج سياسة محشي الباذنجان ، وقدم الكثير من الوعود في سبيل الوصول إلى الحكم ، مع الأسف ، جفف اليوم جذور الباذنجان في البلد . ولم يبق في البلد مسكبة باذنجان واحدة . وهكذا لن يستطيع أي مواطن أكل محشي الباذنجان . إنهم يبدلون لصاقات محشي الباذنجان المعلب الوارد كمساعدات خارجية ،

ويقدمونه إلى السوق باسم محشي باذنجان محلي . أرجو أن تجيبوني أيها المواطنون : هل تشبه معلبات محشي الباذنجان هذه محشي باذنجاننا ؟ أين صنوبر هذا المحشي ؟ أين زبيبه ؟

يملؤون بيوتهم بالمناديل أولئك الذين كانوا يقولون في خطاباتهم إنهم لايمتلكون إلا منديلاً ممزقاً واحداً . ولم يفوا بأي وعد من وعودهم . أما كانوا يقولون : سيكون متوسط حصة المواطن يومياً من محشي الباذنجان قِدراً! . . يالسرعة نسيانهم وعودهم . إن المواطن اليوم يعاني من أزمة محشي باذنجان كبيرة . أين قولهم : «سننتج باذنجاناً بهذا القدر ، وهذا القدر . .» . لا يوجد اليوم حتى باذنجان المخلل . لقد صرنا راضين وقانعين بالمحشي الذي كان أيام حكمنا . إنكم اليوم تتحسرون على الباذنجان القديم .

حقول الباذنجان اليوم مهددة بالتلف . والمواطن محروم من حرية عمل وأكل محشي الباذنجان اليوم . ولشدة خوفهم لم يعد أحد المواطنين يجرؤ على مجرد ذكر الباذنجان . ولأن طرف باذنجاناتهم الكبيرة امتد خارج الحقل سجنوا زرّاعي الباذنجان . كما أن جزءاً من طباخي محشي الباذنجان في المحاكم . أيها المواطنون النتيجة شاخصة أمام أعينكم .

في عام ٢٨٣٦ تحدث الناطق باسم الحزب الحاكم في دولة فارتفيكا قائلاً :

أيها المواطنون المحترمون! إن حزب المعارضة الرئيسي ، مع الأسف ، لا يأخذ بعين الاعتبار الوضع الدولي الراهن ، وحساسيته فوق العادية إنهم يخلطون الأمور بقولهم باذنجان ، وما باذنجان ، محشي وما محشي ، ويخلقون الفوضى كي يحدوا من حملاتنا ويوقفوها . لكن لن يستطيعوا إيقافها . (أصوات : «لن يستطيعوا» . في أيام حكمهم كان كل عشرة مواطنين يحصلون على باذنجانة واحدة . أما اليوم فكل باذنجانة توزع على عشرة مواطنين . كم يجب أن تكون نية المرء سيئة حتى لا يرى هذه الحقيقة

الواضحة .

هل كان يُعمل على أيامهم مقدار أكبر من محشي الباذنجان ؟ إنهم بين الفينة والفينة يطرحون قضية محشي الباذنجان . لماذا لا يرون كل إجراءاتنا المُثْبَتَة هذه . ألا يرون نبتات الفاصولياء التي نزرعها ؟ أريد إعطاءهم إجابات إحصائية : خلال العامين الأخيرين زادت محاصلينا من الباذنجان بنسبة عشرة بالمائة . حُضّر في العام المنصرم مليار ومائتا ألف محشية باذنجان ، وقد ازداد هذا الرقم إلى ست وعشرين ألفاً وأربع وثلاثين مليوناً وأربعمائة ألف وثلاثة مليارات وثمان وأربعين ألفاً واثنتا عشرة ومائة وخمس محشيات في العام الحالي . من يُردْ أن يعد الباذنجانات فليأت ، ومن يُردْ فليزنها . المقياس هنا ، وحلب هناك ، والبحر يكذب الغطاس . بينما كان طول أكبر باذنجانة تنتج في زمانهم شبراً ونصف ، فاليوم أيها المواطنون يُصنع من الباذنجان الذي ننتجه ساريات الأعلام والسفن ، وأعمدة الهاتف ، ويصلح للاستعمال بدلاً من كافة أنواع الأعمدة!

هذا يتكلم مرة ، وذاك يتكلم في اخرى ، والأيام تذهب ولا تعود . هم وصلوا إلى مرادهم ، ووقعنا نحن في الخفيسة .

ما السبب، لماذا، كيف؟

دخل رجل وزوجته إلى أفخم مطاعم المدينة . فتح لهما الباب رجال يلبسون بذات تشبه بذات ماريشالات أيام زمان ، وقادوهما داخل الصالة .

كانت صالة المطعم كبيرة بقدر صالة أوبرا . جلس الرجل والمرأة إلى طاولة . كانت أنوار الثريات المتدلية من السقف ترف جفني الرجل . كانا يدوسان فوق سجاد وبره طويل . وكانت المناشف البيضاء عريضة بقدر غطاء مخدة . وضع النادل أمامهما ثلاث شوكات ، وملعقتين وسكينتين .

طلبا الطعام .

كان ينبعث صوت موسيقى . لا يُرى عازف البيانو . أما عازف الكمان فكان خلف المكرفون . إنه في حدود الخمسين عاماً من عمره . كان له نظارة .

قالت المرأة :

ـ هذا عازف الكمان . .

قال الرجل :

ـ نعم . . يعزف كل يوم .

سألت المرأة :

ـ هل بقي لديه أمل ؟

ـ ممكن أن يكون قد فقد أمله أحياناً . ولكن غالباً ما هو متأمل .

خاصة عندما يشرب . .

ـ وأمله عندما بدأ أول مرة يعزف على الكمان ؟ . .

ـ لعله راح ، لم يبق منه شيء .

ـ لعله يعتقد أنه لم يُفهم ؟ . .

ـ من الممكن أن تكون الحقيقة هذه . .

ـ الكل لديهم شيء من هذا .

جاء إلى الطاولة الطويلة التي بجانبهما عشرة أشخاص بين رجل وامرأة . وجلسوا . أما إلى الطاولة التي على اليمين كان ثمة أربعة رجال .

قال الرجل لزوجته :

ـ أنا متضايق . .

قالت المرأة :

ـ لعل الإضاءة هي السبب ، فالأنوار خافتة . .

فلت الرجل عقدة ربطة عنقه ، ثم فك زر ياقة قميصه .

ـ لعلك متضايق من الموسيقى . .

قال الرجل :

ـ لا ، متضايق من الجو . إنه جو خانق .

كان الرجل يرمق متناولي الطعام . لف الدخان وجه الرجل الذي كان بجانبه . ثم تحول ذاك الوجه الى وجه وحيد قرن . كان رأس وحيد قرن ضخم . إنه وحيد قرن بجسم إنسان جاء إلى المطعم يتناول الطعام . كان ينفتح فمه بشكل كبير جداً ، وتنتفخ حنكاه ، ثم تنزلق قبضة من بلعومه إلى الأسفل .

تحول رأس امرأة عجوز إلى رأس خنزيري .

قال الرجل :

ـ أنا متضايق . .

قالت المرأة :

ـ الجو حار ، لا بد أن هذا هو السبب . ثم إن ثمة دخان تبغ . .

رأى الرجل على الطاولة المقابلة رجلاً له رأس بغل . فقال لزوجته :

ـ انظري إلى هؤلاء . كلهم حيوانات . حيوانات برية قبيحة . انظري إلى هذه المرأة أليست فرس نهر ؟

قالت زوجته :

ـ يتهيأ لك ، إنك متضايق وهذا هو السبب . .

ـ إذا مات فجأة الناس الذين في المطعم ، إذا ماتوا الآن فجأة فما الذي سيخسره العالم ؟

أنت كنت تحب الناس .

ـ أنا أحب الناس . . الناس . . إذا مات إنسان يجب أن يكون العالم قد فقد شيئاً .

قالت زوجته :

ـ هم أيضاً يقولون عنك هذا . إنهم يقولون : «لو مات هذا الرجل فماذا سيحدث ؟»

ـ لا إنهم لا يفكرون . انظري إلى هذا الوجه ذي العينين المتضيقتين بقدر رأس إبرة . ليس لديه أية هموم حول العالم . إنسان كهذا لا يستطيع التفكير ، ولا يعرف كيف يفكر . .

الرجل الذي بجانبه يقضم السرطعان ، وموزات اللحم ، وفخذ العجل .

ـ لا بد أن لديهم همومهم أيضاً .

ـ نعم . . همومهم الذاتية فقط . وللذئب همومه الخاصة أيضاً .

بعد قليل ، قال الرجل مجدداً :

ـ أكاد أختنق .

قالت زوجته :

ـ لنخرج .

قال الرجل :

ـ أتعرفين ماذا يخطر ببالي ؟ لو كنت عملاقاً بين هولاء الحيوانيي الوجوه . لوقفت عند باب المطعم وامتحنت كل من هنا .

بينما كان يقول هذا ، فجأة صرخ :

ـ يداي تكبران . .

قالت زوجته :

ـ وقامتك تطول .

تفسخ الكرسي من تحت الرجل .

قالت المرأة :

ـ رحماك يا رب ، ماذا يحدث لك ؟ كم أنت تضخمت ؟! .

كان الرجل يكبر حيث هو جالس ، ويتضخم ، وتطول قامته . فجأة قفز الرجل المتعملق من مكانه ، وأمسك بباب صالة المطعم ، ثم صرخ قائلاً :

ـ هيـيـيـيـ . . . . ـه!!

أحدث صوته هزة جعلت من في المطعم ينقطع عن تناول الطعام والكلام .

قالت المرأة لزوجها الذي قطع طريق الباب ، متوسلة :

ـ لنذهب .

صرخ الرجل بمن في المطعم :

ـ اصطفوا جميعاً بالدور ، سأمتحنكم!

لخوفهم ، اصطفوا أمام الرجل الذي يساوي حجمه أربعة رجال . سأل من في المقدمة :

ـ ما السبب ؟

عندما لم يستطع الرجل الإجابة ، ضربه كفاً بالمقلوب على وجهه ، وصاح به :

ـ اغرب عن وجهي . .

سأل الرجل الذي جاء بعده :

ـ لماذا ؟

عندما لم يتلق منه جواباً ، أنزل على مؤخرته رفسة قذفته خارج الباب . سأل لمن كان دوره الثالث :

ـ كيف ؟

عندما لم يتلق منه جواباً ، بصق في وجهه .

قال لإمرأة سمينة :

ـ من ؟

ولا واحد ممن في المطعم كان يستطيع الإجابة عن أسئلة : « ما السبب ؟ لماذا ؟ كيف ؟ من ؟ » . وكان الرجل يهينهم ويرمي بهم خارج الباب .

قال صوت هامس انبعث من الجمع :

ـ لنسأله نحن أيضاً ؟

حركَ الجمعَ هذا الصوتُ الهامسُ . صاح الجميع معاً :

ـ لنسأله!

قال رجل سمين من بينهم :

ـ أنا سائق ، قل لنر ، هل تعرف كيف يُنفخ عجل السيارة ؟

سكت الرجل . سكت ، ولكن صغر حجمه قليلاً ، وقصر طوله بعض الشيء كبالون نفث هواءه . ثم قالت امرأة :

ـ أنا عاهرة ، قل لنر . ما هو عدد أنواع المضاجعة في السرير ؟

لم يستطع الرجل الإجابة عليها أيضاً . صغر قليلاً ، وقصر مقداراً . وكلما صغر ، كان يطول ويتضخم أولئك الذين يسألونه أسئلة لا يعرفها .

خرج أحدهم إلى الأمام :

ـ قل لنر ، إذا كان راتبك الشهري ثلاثمائة ليرة ، كيف تستطيع صرف ثلاثة آلاف ليرة ؟

لم يستطع الرجل الإجابة على هذا أيضاً . كان لا يستطيع الإجابة على

أي سؤال . قالت زوجته :

ـ صرت بطولك السابق ، وحجمك السابق ، هيا لنذهب . .

فقال :

ـ صحيح ، سأصغر ، وأصغر ، وأزول . لنذهب قبل أن يسأل الآخرون أسئلة أخرى وأذوب .

خرج الرجل مع زوجته . ضرب هواء بارد وجهيهما . قالت المرأة :

ـ يجب أن يكون لهم وجودهم أيضاً . يجب أن يعيشوا . إذا لم يكونوا موجودين فلا وجود لك ، ولا وجود لضيقك .

تمتم الرجل لنفسه قائلاً :

ـ ما السبب ؟ لماذا ؟ إلى أين ؟ متى ؟

فانتيكو

كان في قديم الزمان ، في احدى الدول كاتب مسن جداً . كان يكتب مقالة يومياً لجريدة . لم يكن في تلك الدولة كثير ممن يهتم بمقالاته ، أو يقرؤها . لهذا السبب كان هذا الكاتب يعاني من القلق . فيفكر قائلاً لنفسه : ماذا سأفعل لكي أشد انتباه القراء ؟

في مساء أحد الأيام أسند رأسه بين يديه ، وقال لنفسه : «ماذا أفعل ؟ ماذا أكتب ؟» كان عليه أن يكتب مقالة تنشر بعد الغد . لم يكن في رأسه موضوع يشد انتباه الجميع ، بل حتى إنه لم يكن يخطر بباله أي موضوع . وهو مضطر للكتابة يومياً . تناول القلم ورسم على الورقة التي أمامه أشكالاً لا معنى لها . كان دائماً يفعل هذا عندما لم يكن في رأسه ثمة ما يكتبه . وبالصدفة رسم زورقاً شراعياً . ثم كتب اسمه ، ثم أعاد كتابته . فكر قائلاً : «ماذا أكتب للغد ؟» بدأ يكتب اسمه بأحرف كبيرة . ظلل الأحرف الكبيرة المفرع داخلها ، بقلم الرصاص .

عندما امتلأت الورقة التي أمامه بالخطوط والأشكال ، رماها بعصبية ، وتناول ورقة ثانية . ثم بدأ يرسم نجوماً . كتب على الورقة بعناية حرف «ف» . كان قد رسم هذا الحرف بدون وعي كما رسم بقية الأشكال . ثم كتب إلى جانبه حرف «ا» . بعد هذا رسم شكلاً سيئاً لشمس وآخر لقلب . ثم بدأ يكتب في أمكنة مختلفة من الورقة بعض الحروف بشكل عشوائي :

«ف» ، و«ا» ، و«ن» . . ثم كتب «ت» ، بعد هذا «ي» .

عاد يقول لنفسه : «ماذا سأفعل ، ماذا سأكتب ؟» كان عليه أن يكتب شيئاً كل ما يقرأه يقول : «يا سلام على هذا الرجل ، لقد أبدع!»

كتب على الورقة حرف «ك» ثم حرف «و» ، ثم رسم ما يشبه ذيل الحصان .

وبينما كان يفكر فيما سيكتبه ، أحس بما يشبه الصحوة . رصف تلك الحروف التي كتبها في أرجاء مختلفة من الورقة هنا وهناك وهو بين صاح وشارد وقرأها : ف ـ ا ـ ن ـ ت ـ ي ـ ك ـ و . .

قرأها مرة أخرى : فانتيكو . . قال لنفسه فرحاً :

ـ هاااا هاه . . وجدتها!

في النهاية وجد ما سيكتبه للجريدة . تناول ورقة بيضاء . كتب في رأسها «فانتيكو» . . إن كل الصعوبات تكمن قبل إيجاد الموضوع .

جذبت اهتمام الكثير المقالة المعنونة فانتيكو ، التي نشرت بعد يوم في الجريدة . كان الجميع يتحدث عن الفانتيكو . أما المقالة فقد كانت سيئة جداً .

كان الجميع يتساءلون عما إذا كانوا قد قرأوا مقالة «فانتيكو» . والذين لم يقرأوها يبحثون عن الجريدة ، وبعد أن يجدوها يقرؤون المقالة المعنونة فانتيكو . والجميع يتساءلون :

ـ ما هو الفانتيكو ؟

لا أحد يعرف ماذا تعني فانتيكو . ولكن الحقيقة الوحيدة التي تعلمهاالقراء من المقالة هي أن الفانتيكو شيء غاية في السوء .

بعد ثلاثة أيام كتب ذلك الكاتب في الجريدة التي يعمل فيها مقالة اخرى بعنوان : «الفانتيكو ؟» . كانت مقالة مخيفة للقراء . تبين أن الفانتيكويين أناس غاية في الخطورة . أينما حلّوا يُغَوِّرُونَ المكان الذي يحلون فيه ، ويهدمونه . وهؤلاء أسوأ من الشياطين .

وخلال شهر واحد ، كتب هذا الكاتب ست مقالات حول : «الفانتيكو» و«الفانتيكوية» و«الفانتيكويين» ، وقد حققت هذه المقالات اهتماماً لم يُر له من قبل مثيل .

بدأ الكتاب الآخرون الذين شعروا بهذه الأهمية للفانتيكو بالكتابة في هذا الموضوع . وكانت تصدر هذه المقالات تحت عناوين مثل : «يسقط الفانتيكويون» ، «الفانتيكويون السفلة» «الموت للفانتيكوية» .

ومع مرور الأيام بدأ ينتشر الخوف من الفانتيكوية . وتوسعت شهرة الكاتب أول من كتب عن الفانتيكو التي لم تكن معروفة حتى يوم تعريفه بها . وكان يُعدُّ هذا الكاتبُ العظيمُ منقذاً . لولا أنه قد استشرف هذه الخطورة المخيفة ، وحكى عنها ، لما عرفها أحد من الناس وهم يواجهونها ، وهي أمام أنوفهم .

حكوا عن خطورة الفانتيكو التي تزيد عن خطورة السل والكوليرا والملاريا . وحسن لو كان الأمر قد انتهى عند هذا الحد . . فوق هذا ، كان الفانتيكو ينتقل بالعدوى . لو دخل فانتيكوي ، إلى مكان فيه ألف شخص ، فخلال دقيقة واحدة سيحول الألف إلى فانتيكويين ، من أجل هذا يكفي الفانتيكوي ويزيد شهقة أو زفرة ، أو تأبة . أما إذا عطس فلا يستحق الذكر تحويله عشرة آلاف شخص إلى فانتيكويين . لهذا السبب أينما وجد فانتيكوي يجب الانقضاض عليه قبل أن يتنفس ، أو يعطس ، أو يسعل ، كما يجب سحق رأسه ، وتفتيت مخه ، ثم حرقه وجعله رماداً . وكان لا يتم التخلص من الفانتيكويين بحرقهم وجعلهم رماداً ، بل يجب جمع هذا الرماد ، ورميه في قاع البحر ، وجمع دخان حرقهم وإطلاقه إلى السماء .

شنف من يعيش في تلك الدولة آذانه ، وبحلق عينيه ، وتأهب لتلقي ما سيبثه قلم الأستاذ الكاتب ، أول من نبه إلى خطورة الفانتيكو . وكان الجميع شباباً وشيباً ، صغاراً وكباراً ، أصحاء ومرضى ، رجالاً ونساءً يقظين لخطورة الفانتيكوية .

في أحد الأيام ، كتب الأستاذ الكاتب مقالة بعنوان : « كيف نتقي الفانتيكوية ؟ » وحسب المقالة ، يجب على الإنسان لكي يتقي الفانتيكوية أن يهز رأسه ،وألا يرفع قدميه عن الأرض أثناء المشي وأن يرف بجفونه دائماً .

والذين لا يجرون أقدامهم على الأرض جراً ، أو يرفعون أقدامهم في أثناء سيرهم ، ولا يرفون أجفانهم ولا يهزون رؤوسهم ، لا يمكن أن يكونوا إلا فانتيكويين .

صار كل شخص يرصد الآخر . من لا يعمل هذا ينقضون عليه على أنه فانتيكوي . أصبح الناس لخوفهم من إلصاق تهمة الفانتيكوية بهم يسيرون جارين أقدامهم على الأرض جراً ، ويرفون أجفانهم دائماً ، ويهزون رؤوسهم . وإن لم يفعلوا هذا ، فلن يكون هناك أي عائق للانقضاض عليهم ، واعتقالهم .

وبسبب جر الناس لأقدامهم جراً في أثناء المسير صاروا يذهبون إلى أعمالهم ، أو إلى أي مكان آخر متأخرين . كانوا يفوتون مواعيد الحافلات ، والتراموايات ، والسفن ، والقطارات لا يستطيعون اللحاق بها بأي شكل .

ولخوف أناس تلك الدولة من إلصاق تهمة الفانتيكوية بهم ، صاروا يجرّون أقدامهم ويهزون رؤوسهم ، ويرفون أجفانهم ، فلهذا لم يعد يعرف أيهم فانتيكوي ، وأيهم ليس فانتيكوياً . لأن الجميع صاروا يعملون هكذا . لكن الأستاذ الكاتب أسرع إلى نجدتهم . قال إنه لا يكفي جر الأقدام ، ورف الأجفان ، وهز الرؤوس لاتقاء الفانتيكوية . لأن الفانتيكويين بدأوا يعملون هذا أيضاً . لهذا السبب كان لا يستطاع الفصل بين الفانتيكويين ، وأعداء الفانتيكوية . إثر هذا كتب الأستاذ الكاتب أنه من أجل اتقاء الفانتيكوية يجب ثني الركبة مع كل جرة قدم ، وإطلاق صوت : « هوتا ـ هاتا ـ هوب! . . » . صار كل شخص يعمل هذا . وإذا غلط أحدهم ، وقال : « هوبا ـ هابا ـ هوب » بدلاً من « هوتا ـ هاتا ـ هوب » ، أو قالها بشكل آخر

يقبض عليه بتهمة الفانتيكوية . صار كل شخص يشنف أذنيه ، ويحملق عينيه على الآخر . صار الجميع لخوفهم ، ولإظهار أنفسهم بأنهم ليسوا فانتيكويين يصرخون إلى حد يكادون فيه تفجير حناجرهم : «هوتا ـ هاتا ـ هوب . .!» كانت تتردد أصداء هذه الأصوات . الجبال والصخور تردد أصداء : «هوتا ـ هاتا ـ هوب . . »

في مساء يوم ما غضب الأستاذ الكاتب من صاحب الخمارة التي يذهب إليها كل مساء ويشرب فيها . وسبب غضبه هو طلب صاحب الخمارة الديون المتراكمة على الكاتب منذ زمن طويل . سأله صاحب الخمارة :

ـ ياترى ، هل تستطيعون دفع شيء من دينكم ؟

لحظتئذ ، صاح الأستاذ الكاتب لمن كان هناك مشيراً إلى صاحب الخمارة :

ـ ها هو ،واحد فانتيكوي ، امسكوه!

كان يقسم صاحب الخمارة المقبوض عليه متوسلاً :

ـ والله بالله تالله لست فانتيكوياً . .

لم يصغ إليه أحد . دافع صاحب الخمارة عن نفسه على النحوالتالي :

ـ كيف يمكن أن أكون فانتيكوياً ؟ رحماكم . منذ ظهور الفانتيكوية لم أرفع قدميَ عن الأرض ولو بمقدار إصبع . أسير دائماً جاراً قدميّ . وفي كل خطوة أثني ركبتي . ودائماً أهز رأسي . صرت هزاز الرأس . وأرف جفوني حتى في الليل أثناء النوم . غير هذا دائماً أقول ملء صوتي : «هوتا ـ هاتا ـ هوب» دون توقف مثل الضفادع .

إثر هذا ذهبوا إلى الأستاذ الكاتب وسألوه عن حقيقة الأمر ، فقال لهم :

ـ لا تصدقوه! إن الفانتيكيويين يتقمصون كل الشخصيات . وهذا فانتيكوي متقمص هيئة صاحب خمارة .

بسرعة انتشر هذا الأسلوب في أرجاء الدولة بسبب إفادته لكثير من الأشخاص . يقول صاحب البيت عن المستأجر لكي يطرده من بيته ، ويؤجره

بسعر أعلى .

ـ فانتيكوي!

ـ كيف عرفت فانتيكويته ؟

ـ فانتيكوي تقمص شخصية مستأجر .

والمستأجر الذي يريد أن يسكن في البيت المستأجره مجاناً يقول عن صاحبه :

ـ فانتيكوي!

ـ كيف عرفت فانتيكويته ؟

ـ فانتيكوي تقمص شخصية صاحب بيت .

ويتبادل السمان والزبون الاتهام :

ـ فانتيكوي تقمص شخصية سمان!

ـ فانتيكوي تقمص شخصية زبون!

صار سكان تلك الدولة من أجل أن يتخلصوا من إلصاق تهمة الفانتيكية بهم يصرخ كل منهم في وجه الآخر :

ـ فانتيكوي . .

من يفاجىء الآخر بسرعة أكبر يخلص نفسه . إذا لم يصرخ المرء في وجه أول إنسان يظهر أمامه : فانتيكوي ، سيصرخ الآخر بهذا .

صار من غير الممكن معرفة القالب الذي يتقمصه الفانتيكويون ، ومتى وكيف ولماذا يتقمصون . كان يُبحث عن شخصيات يتقمصها الفانتيكويون ، ولا توجد ، لم تبق أية شخصية . .

في هذه الأثناء أشار الأستاذ الكاتب إلى أحدهم بأنه «فانتيكوي» ، لكن الآخر صرخ مشيراً إلى الأستاذ الكاتب :

ـ تقمص الفانتيكويون شخصيات أعداء الفانتيكوية .

لو كان قد قال الأستاذ الكاتب : «ليس ثمة ما يدعى فانتيكوية . أنا الذي اخترعتها» عندها سيخسر «أستذته» ، وإذا قال : «أنا فانتيكوي»

سيخسر ذاته .

لهذا قال متأتئاً

ـ أنا ، هل أنا فانتيكوي ؟ أنا ها ؟ هل أنا ؟

وأضاف وهو يئن :

ـ انظروا إلى هيئتي ثم احكوا . من يتقمص شخصيتي ؟

بعد هذا ، صار يثني ركبته ، ويرف جفونه ، ويهز رأسه ، ويقول :

ـ هوتا ـ هاتا ـ هوب! هوتا ـ هاتا ـ هوب . .

حكاية سيارة رسمية

جانبت اللوحة المكتوب عليها : «ممنوع الوقوف» ، وداست برجلها الخلفية اليمنى على رصيف المشاة . صفّر شرطي السير بعصبية . ورداً على شرطي السير قذفت السيارة السوداء نفختين من الدخان من مدخنتها . أخرج شرطي السير ، الذي وصل غضبه إلى نهايته ، دفتر المخالفات من جيبه وركض وهو يشهق من أنفه . قالت السيارة السوداء لشرطي المرور دون تحريك نفسها :

ـ انظر إلى سماتي ثم اقترب مني! . .

ذهب شرطي المرور إلى خلف السيارة ليأخذ رقمها . عندما رأى من سماتها اللوحة الرسمية الحمراء التي تبدأ بصفرين ، وبجانبها رقم صغير ، ضرب قدمه بالأرض «طاخ» ووقف باستعداد ، ثم أدى التحية وقال :

ـ عذراً يا سيدتي السيارة ذات اللوحة الرسمية . أنا ظننت حضرتك سيارة أجرة أو ما شابهها .

أطلقت السيارة الرسمية من مدخنتها ضحكة :

ـ قه . . قه . . قه . .

احمرّ شرطي المرور حتى رأس أنفه ، وصرخ بسائق سيارة خدمة ، وكتبه مخالفةً لأنه يسير بسرعة ، وكتب آخر مخالفة لأنه يسير ببطء . وكتب أحدهم لأنه ركَّب ركاباً ، وكتب آخر لأنه لم يُركّب . كما خالف

أحدهم لأنه لم يتوقف . عندها هدأت حدته وبردت أعصابه .

في هذه الأثناء مرت سيارة خدمة قديمة بالسيارة الرسمية وقالت لها :

ـ مرحباً يا صديقتي ، كيف حالك ؟

برمت السيارة الرسمية أنفها قائلة :

ـ من أين لك صداقتي أنا ؟

ـ يالسرعة نسيانك ذكرياتك! ألسنا إنتاج معمل واحد ؟ ألم نأت معاً إلى الجمارك ؟

هنا تذكرت السيارة الرسمية صديقتها من الحي القديم . ولشدة تأثرها ذرفت قطرتي بنزين من خزانها وقالت :

ـ آه يا صديقتي المسكينة ، ماذا جرى لك ؟ لماذا أنت مهلهلة هكذا مثل حزب سقط لتوه من السلطة ؟ . .

بدأت سيارة الخدمة تحكي عن حياتها بأسى :

ـ بعد انفصالنا في الجمارك ، اشتراني تاجر خردة حديد . من الصباح حتى الظهيرة كانت زوجة التاجر تأخذ دروس قيادة السيارة في بيت شاب صديق للعائلة . بعد الظهر كان يدرب الشاب المرأة الممتلئة عليَ . وفي الليل كان يستخدمني ابن التاجر ، وأحياناً ابنته كعربة نوم وليس كسيارة . وإذا كنت بقيت إلى هذا الوقت سيارة فهذا من عزة الروح . وهل يبقى حيل بعد رؤية كل هذه المناظر ؟ تخ مقودي ، وأهترأت فراملي .

في هذه الأثناء باع صاحبي تاجر الخردة الحديدية بفاتورة مزورة تنكاً صدئاً على أنه فولاذ صافي بربح ألف وخمسمائة بالمائة ، فخفَض أسعار السوق . لهذا السبب بلَغَ عنه تاجر خردة آخر . عندما دخل التاجر المسكين السجن بقيت أنا بين أيدي زوجته ومعلمها لقيادة السيارة وابنة التاجر وابنه . لا بد أنك تذكرين ما نشرته الجرائد أنه «تم القبض على السيدة ج .ن . المنسوبة إلى إحدى العائلات العريقة من أكابر بلدنا مع رجل في وضعية غير لائقة داخل سيارتها الخاصة» . السيارة التي كانت

مسرح الوضعيات غير اللائقة هي أنا . بعد هذا ، اشتراني سمان . جعلني سيارة أجرة . كان يعمل عليَ سائق . يأخذ نصف الربح ويسرق ثلاثين بالمائة منه ، ويصرف عشرة بالمائة ، ويعطي الباقي للسمان . وفي اليوم التالي يأخذ منه ضعف ما أعطاه بحجة أجرة تصليح . وفي النهاية لكي لا يخسر السمان دكانه ويقعد دون عمل ، أهداني للسائق . عندما خطف السائق إحدى الراكبات إلى جبل (قايش) دخل السجن . حكايتي طويلة يا صديقتي . . لصوص سيارات كثيرون سرقوني ، وكثير من الأيدي تغيرت علي . . آه من الطرق التي سرت عليها ، حتى المشاة لا يستطيعون المرور منها . كم إنسان دهست ؟ كم مرة دخلت الدكاكين ، وتسلقت المداخن ، وضاجعت الأشجار ، وطرت إلى البحر . إذا أنا ما صرت بهذه الحالة ، فمن سيصير ؟ . . حسنً ، احكي لنا أنت كيف بقيت تتلامعين هكذا مثل امرأة خرجت لتوها من معهد للتجميل ؟ . .

بدأت السيارة الرسمية تحكي قصتها :

ـ أنا أستيقظ صباحاً في مرآبي . آخذ السيد الصغير ، والآنسة الصغيرة إلى مدرستهما . ثم إذا كان السيد البيك لم يركب السيارة الرسمية الأخرى يذهب بي إلى مقامه . ولكن ليس دائماً . إنه يذهب إلى عمله أيام مللـه من الجلوس في البيت ، وأيام عدم سفره . ثم آخذ السيدة الخانم إلى حلاقها ، أو إحدى جاراتها ، أو إلى حفلة لعب ورق . وإذا بدأن بالقيل والقال ، أتكىء أنا أمام البيت وأنام . أحياناً آخذ السيدة الخانم إلى خياطها . أحياناً تذهب الست الكبيرة إلى السوق لتشتري بكرة خيطان ، أو إبرة ، أوماشابه ذلك ، فتركبني . أكثر الأحيان أحمل الطباخ والخادم . إذا ذهبت إلى السوق لشراء بعض الحاجيات ، فلا بد أن ينسى الثوم أو البصل . ولا يكمل شراء الطلبات إلا بعد ثلاث أو أربع سفرات . وفي الليل أذهب إلى حفلات الشاي ، والولائم ، والحفلات التنكرية .

قالت سيارة الخدمة التي عتقت قبل أوانها :

ـ ألا يقال لا يجوز استخدام السيارات الرسمية في الأعمال الخاصة ؟
أطلقت من مدخنتها دفقة دخان ، وقالت :
ـ منذ زمن حضرة السلطان بلموط ويقال ما يشبه هذا . . ولكن هل هناك فرق بين الرسمي والخاص ؟ اسمعي ، ركوب الخادم لي ، والذهاب إلى السوق لشراء الثوم ليس عملاً خاصاً ، بل عمل رسمي .
قالت سيارة الخدمة :
ـ وهل هذا ممكن ؟
ـ لِمَ لا يكون ممكناً ؟ أنا سيارة من ؟
ـ سيارة الشعب
ـ من يخدم سيدي ؟
ـ الشعب .
ـ الخادم والست ، وهذا ، وذاك ممن ؟
ـ من الشعب . .
ـ هذه الأرض لمن ؟
ـ للشعب .
ـ لمن الأشجار والخضراوات ، والبصل والثوم الذي تنتجه هذه الأرض ؟
ـ من المؤكد أنها للشعب . .
ـ أرأيتِ ؟ سيارة الشعب ، تسير على طريق الشعب ، تحمل خدام الشعب ليجلب محاصيل الشعب . أين خاصية هذه الشغلة ؟ السيارة للشعب ، والثوم للشعب . وهل بيننا تفريق ؟ ألسنا مستعدين جميعاً لنكون قرابين للشعب ؟

الفهرس

KMH

تِرِي.. لِيْ.. لَمْ



لوحة الغلاف : سعد علي

تِرِي.. لِيْ.. لَمْ

ISBN => 2-84305-051-0
EAN => 9782843050510